مجلة

المنار

المجلد الثامن

الجزء العاشر والحادي عشر والثاني عشر

إهداء من

شبكة الألوكة
www.alukah.net

تابعوا ...

الجديد و الحصري
NEW & EXCLUSIVE

طبعة دار الوفاء
للطباعة والنشر

WWW.ALUKAH.NET

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

(قال عليه الصلاة والسلام: ان للاسلام صوى ومنارا كمنار الطريق)

(مصر - ١٦ جمادى الاولى سنة ١٣٢٣ - ١٩ يوليو (تموز) سنة ١٩٠٥)

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

مصاب الاسلام بموت الاستاذ الامام

مات الاستاذ الامام ولو كان كبر النفوس وطهارة الارواح وعلو الهمم مما يحول دون الموت لما مات أبدا ولكن كل حي يموت إلا الحي القيوم «إنا لله وانا إليه راجعون»

مات الاستاذ الامام فمات ذلك العلم الواسع، والحكمة البالغة، والحجة الناطقة، والمعارف الكونية والالهية، والعلوم الكسبية واللدنية، مع البيان الساحر، والأدب الباهر، والبلاغة التي تختلك العقول والقلوب، والفصاحة التي تستهوي الاسماع والنفوس،

مات الاستاذ الامام فمات تلك الاخلاق القدسية، والشمائل المحمدية، والصدق في القول والفعل، والاخلاص في السر والجهر، والوفاء في القرب والبعد، والسخاء في العسر واليسر، والعفة في الشباب والكهولة، والحلم عند الغيظ والمغاضبة، والعفو مع القدرة على المؤاخذة، والتواضع وخفض الجناح للمخلصين، والشهامة والترفع على المنافقين والمستكبرين، واللين للحق وأهله، والشدة على الباطل وجنده، والشجاعة التي تهابها الأمراء والعظماء، والقناعة التي رفعت رأسه فوق الرؤساء

مات الاستاذ الامام فمات تلك الاعمال النافعة، والمشروعات الرافعة، والمساعي الجديدة، والوسائل المفيدة، والاجتهاد في ترقية الأمة، والدفاع عن الملة، والدعوة إلى التوحيد والتأليف، والاشتغال بأفضل التعليم والتأديب، والتربية الصحيحة للمريدين، والجمع بين علوم الدنيا والدين، ومواساة البائسين والمعوزين، وكفالة أولاد الفقراء والمساكين،

مات الاستاذ الامام فمات تلك الآمال البعيدة، والمقاصد الحميدة،

www.alukah.net

التي كانت مطوية في ذلك الجرم الصغير، الذي انطوى فيه العالم الكبير، بتلك الآمال التي تتضاءل دونها هم الملوك والأمراء. وتتصاغر أمامها نفوس الزعماء والأغنياء، الذين هم عن استقبال مواهبهم مصروفون، وعن الثقة بهم محجوبون، وعن سنته في خلقه غافلون،

مات الاستاذ الامام فراع موته الناس، من جميع الطوائف والاجناس، فعلم علماء الدين، أنهم فقدوا ركنهم الركين، الذي يحمل عنهم رد الشبهات، وغير ذلك من فروض الكفايات، وعلماء الدنيا، أنهم خسروا ركنهم الاقوى، الذي يدفع عنهم مطاعن المتعصبين، وتكفير الجامدين، ويثبت ان الاسلام جمع بين المصلحتين، ولا يتم ذلك الا بالجمع بين العلمين، وشعر طلاب الاصلاح بأنهم فقدوا إمامهم العظيم، الذي كملت فيه صفات الزعيم، وأحس الفقراء والمساكين، بأنهم رزءوا بكافل اليتامى وغوث العاجزين، ولم يجهل القائمون بالشؤون العامة، شدة وقع هذه الطامة، وانهم نكبوا بصاحب الرأي الثاقب، والعمل النافع، مربي الرأي العام في الشورى والجمعية العمومية، صاحب اليد البيضاء في الاوقاف الاسلامية، المضطلع باصلاح الأزهر والمحاكم الشرعية، الناهض بأعباء الجمعية الخيرية، الموفق بين الحكومة والرعية، واعترف أهل الملل بأن مصابه مصاب الانسانية، والخسارة الكبرى على العلم والمدنية،

مرض هذا البر الرحيم فكان على فراش الموت يسأل عن بعض الضعفاء، ويبحث عن مساكن القواعد من النساء، ليواسيهم بالبر من وراء الستر، وقال لي ان فلانا الغريب قد انقطع عن السفر بدين عليه، وانني مستغن الآن عن مئة جنيه فان كانت كافية ارسلتها اليه، ولكنه غاب

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

عن الوجود ، قبل ان يقضي لبانته من البر والجود ،

مرض هذا المصلح العظيم فاضطربت الامة المصرية لمرضه فكانت الدار التي يمرض فيها كعبة العائدين من العلماء والامراء والوزراء والادباء والفضلاء والفقراء والأغنياء وكان البرق يناجيها كل يوم مع البريد ، بالنيابة عن العاجز والبعيد ، سائلين عن صحته ، أو مهنئين بما يقال عن راحته ، فكان يحمد الله ان جعل الدهماء من أمته يعرفون لخادمها خدمته ، ويشكرون للعامل لها عمله ، ويقول لئن شفيت لاجهدن النفس في خدمتهم اجمعين ، حتى أكون حرضا أو أكون من الهالكين ،

مرض الاستاذ الامام ، فلم يعقه المرض عن خدمة المسلمين والاسلام ، واحتضر الاستاذ الامام ، وهو يفكر في مصلحة المسلمين والاسلام ، ومات الاستاذ الامام ، وهو يلتهب غيرة على المسلمين والاسلام ،

نقول مات الاستاذ الامام فنبدىء القول ونعيده فنصر الحس ، وننكر النفس ، فقد كادت تحسب ان موته رؤيا منام ، وأضغاث أحلام ، وماهو الا الحق اليقين ، ومصير الاولين والآخرين ، « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون * كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون * » مات استاذنا وإمامنا ولك اللهم البقاء فلا تفتنا بعده ، ولا تحرمنا أجره ، واغفر اللهم لنا وله ،

نعم إنه قد مات ولكن لم تمت علومه ومعارفه ، ومآثره وعوارفه ، فلقد ربى أرواحا ، واصلح إصلاحا ، وألف كتبا ، وترك علماء وأدباء ، وأمات سننا سيئة له أجر إماتتها وأحيا سننا حسنة له أجرها وأجر من يعمل بها ، وعلمنا كيف نفهم القرآن ، ونقيم شرائع الاسلام ، مع توخي نفع

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الناس أجمعين ، والاخلاص لله رب العالمين ،

مات أستاذنا وإمامنا فكبر علينا موته ولكنه ربانا على الصبر وعلمنا كيف نتعزى عنه حتى في مرض موته ، فقد كان هجيراه في تلك الكربات والسكرات ، كلمة الله التي أمرنا بتكرارها في الصلوات . (الله أكبر) فلئن كان بفضل الله كبيرا فيما فالله أكبر ، ولئن كان مرضه وموته كبيرا علينا فالله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم

لبى دعوة ربه برمل الاسكندرية في الساعة الخامسة بعد الزوال من يوم الثلاثاء ثامن جمادى الاولى فنعاه البرق بآلاته الناطقة والكاتبة الى العاصمة وغيرها من مدن القطر فاضطربت لنعيه القلوب وذرفت العيون واسترجعت الألسنة وحوقلت وطفق الناس يعزي بعضهم بعضا متفقين على ان المصاب به عام ، وأشد وقعه على المسلمين والاسلام ، وما كنت تسمع من القريب والغريب ، والبغيض والحبيب ، والوطني والاجنبي ، والرشيد والغوي ، والعالم والجاهل ، والمفضول والفاضل ، إلا كلمة « خسارة لا تعوض » أو كلمة « عوض الله الأمة به خيرا » أو قول الشاعر

وما كان قيس رزءه رزء واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

أو قول الآخر

ولكن الرزية فقد حر يموت لموته خلق كثير

وقد اجتمع مجلس النظار فقرر ان تحتفل الحكومة رسميا بتشييع جنازته في الاسكندرية ومصر وان تنقل جثته على قطار خاص الى العاصمة ففعلت وشاركتها الأمة وزلاؤها والمحتلون بهذا التشييع الذي لم يسبق

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مثله لغيره حتى كان يخيل للمشيع انه لم يبق أحد من سكان الاسكندرية ولا من سكان القاهرة الا وقد حضر ليودع هذا الامام الوداع الاخير وقد صلي عليه في الجامع الأزهر ودفن في قرافة المجاورين تغمده الله برحمته ورضوانه ، وأسكنه فسيح جنانه

ولما كان المنار هو الداعي الى الانتفاع بهذا الامام المصلح في حياته ، فجدير به ان يرشد الى الاستفادة بسيرته بعد مماته ، فلا نطيل في الرثاء والتأبين وان كان بالحق ، ولكننا نقص على القراء ملخص سيرته مع التزام الصدق ، ليظهر لهم كيف تعلم وتربي حتى صار إماما حكيما ، وماذا عمل حتى صار معلما عظيما ، وسنضم له تاريخا معقولا نفصل فيه ما أجملناه ونشرح فيه ما لخصناه ، ونودعه كثيرا من رسائله ومكاتباته ، وخطبه ومقالاته ، وما كتب به اليه بعض العلماء والعظماء ، وما قاله فيه نوابغ الكتاب والشعراء ، وما ابتدعه به الجرائد ، ومارثي به من غرر القصائد ، ونسأل الله تعالى ان يحسن عزاءنا وعزاء الامة فيه ، ويوفقنا في مصابنا لما يحبه سبحانه ويرضيه ،

ملخص سيرة الاستاذ الامام

(اسمه ونسبه ومولده)

هو محمد بن عبده بن حسن خير الله من مديرية البحيرة في القطر المصري . وبيت خير الله تركماني الأصل كما اخبرنا الفقيد رحمه الله تعالى ولا أذكر عنه شيئا من تاريخ قدوم عشيرتهم إلى القطر المصري الا أنهم كانوا يقيمون في اطميم وان علي باشا مبارك أخبره ان عبد اللطيف البغدادي المؤرخ الشهير ذكر في الرحلة الكبرى انه جاء (محلة نصر) ونزل ضيفا في بيت التركماني . وأمه من عشيرة كبيرة في مديرية الغربية تعرف بعائلة عثمان وتنسب

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

إلى بني عدي قبيلة سيدنا عمر بن الخطاب ويقال إنها من ذريته . وكان والده شهما شجاعا وقورا سخي النفس وكانت والدته برة رحيمة بالمساكين ذكية الفؤاد شديدة الحياء ولا أبعد إذا قلت ان والديه كانا من أسلم الناس فطرة وأحسنهم خلقا . وكانت هذه الاخلاق فيهما موروثة ومكتسبة بالمعاشرة والقدوة لا بتعليم المدارس ولا بتأديب المعلمين . وهذا أصل عظيم في استعداد الرجل لما وصل اليه من الكمال الذي لم نر ولم نسمع بمثله وقد قال صلى الله عليه وسلم «الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام اذا فقهوا» رواه البخاري ومسلم

ولد قدس الله تعالى روحه في أواخر سنة خمس وستين أو ست وستين ومئتين وألف من الهجرة الشريفة (روايتان من كتابته) في قرية من قرى مديرية الغربية كان والده هاجر اليها هو وأخوه بهنس فرارا من ظلم حكام مديرية البحيرة في اواخر حكم محمد علي باشا الكبير وكان له قرابة في تلك القرية وفي أثناء إقامته فيها كان يتردد إلى بعض القرى القريبة فيها ويتعارف هو وأهلها فأدى ذلك التعارف إلى المصاهرة اذ تزوج بوالدة الفقيد وهي من قرية تسمى (حصة شبشير) قريبة من مدينة طنطا واقام معها في قرية تسمى (شنتر) الى أواخر مدة عباس باشا الأول والي مصر ثم ألجأته الحوادث بعد ذلك الى الرجوع إلى بلده وهي قرية تسمى (محلة نصر) في البحيرة وفيها نشأ وترعرع

تعليمه وتربيته

نشأ كما ينشأ أمثاله من أبناء البيوت المعروفة في القرى ولم يدخل المكتب لتعلم القراءة والكتابة إلا بعد أن جاوز العاشرة من سنه وقد

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

كتب هو عن مبدإ تعلمه وتأدبه مانصه : « تعلمت القراءة والكتابة في منزل والدي ثم انتقلت الى دار حافظ قرآن قرأت عليه وحدي جميع القرآن أول مرة ثم أعدت القراءة حتى أتممت حفظه جميعه في مدة سنتين ادركني في ثانيتهما صبيان من أهل القرية جاءوا من مكتب آخر ليقرؤا القرآن عند هذا الحافظ ظنا منهم ان نجاحي في حفظ القرآن كان من أثر اهتمام الحافظ . بعد ذلك حملني والدي الى طنطا حيث كان أخي لأمي الشيخ مجاهد رحمه الله لأجوّد القرآن في المسجد الاحمدي لشهرة قرائه بفنون التجويد وكان ذلك في سنة ١٢٧٩ هجرية

« ثم في سنة احدى وثمانين جلست في دروس العلم وبدأت بتلقي شرح الكفراوي على الأجرومية في المسجد الاحمدي بطنطا وقضيت سنة ونصفا لأنهم شيئا لزاوية طريقة التعليم فان المدرسين كانوا يفاجئوننا باصطلاحات نحوية أو فقهية لا نفهمها ولا عناية لهم بتفهيم معانيها لمن لم يعرفها فأدركني اليأس من النجاح وهربت من الدروس واختفيت عند اخوالي مدة ثلاثة أشهر ثم عثر علي أخي فأخذني الى المسجد الاحمدي وأراد اكراهي على طلب العلم فأبيت وقلت له : قد أيقنت ان لا نجاح لي في طلب العلم ولم يبق علي الا أن اعود الى بلدي واشتغل بملاحظة الزراعة كما يشتغل الكثير من أقاربي : وانتهى الجدال بتغلبي عليه فأخذت ما كان لي من ثياب ومتاع ورجعت الى محلة نصر على نية ان لا أعود الى طلب العلم وتزوجت في سنة ١٢٨٢ على هذه النية

« فهذا أول أثر وجدت في نفسي من طريقة التعليم في طنطا وهي بعينها طريقته في الازهر وهو الاثر الذي يجده كل طالب ويكون في المئة من

أهلا من شبكة الألوكة www.alukah.net

لا يساعدهم القدر بصحبة من لا يلتزمون هذه السبيل في التعليم - سبيل إلقاء المعلم مايعرفه أو مالا يعرفه بدون ان يراعي المتعلم ودرجة استعداده للفهم غير ان الاغلب من الطلبة الذين لا يفهمون تغشيهم أنفسهم فيظنون أنهم فهموا شيئا فيستمرون على الطلب الى أن يبلغوا سن الرجال، وهم في أحلام الاطفال، ثم يبتلى بهم الناس وتصاب بهم العامة فتعظم بهم الرزية لانهم يزيدون الجاهل جهالة ويضلون من توجد عنده داعية الاسترشاد ويؤذون بدعاويهم من يكون على شيء من العلم ويحولون بينه وبين نفع الناس بعلمه

« بعد ان تزوجت باربعين يوما جاءني والدي ضحوة نهار وألزمني بالذهاب الى طنطا لطلب العلم وبعد احتجاج ومنع وإباء لم أجد مندوحة عن إطاعة الأمر ووجدت فرسا أحضر فركبته وأصحبني والدي بأحد أقاربي وكان قوي البنية شديد البأس ليشيعني الى محطة (إبتاي البارود) التي أركب منها قطار السكة الحديدية الى طنطا . كان اليوم شديد الحر والريح عاصفة ملتهبة سافياء ، تحصب الوجه بشبه الرمضاء ، فلم أستطع الاستمرار في السير فقلت لصاحبي أما مداومة المسير فلا طاقة لي بها مع هذه الحرارة ولا بد من التعريج على قرية أنتظر فيها ان يخف الحر، فأبى علي ذلك فتركته واجريت الفرس هاربا من مشاهدته وقلت اني ذاهب الى (كنيسة ادرين) - بلدة غالب سكانها من خؤولة ابي - وقد فرح بي شبان القرية (*) لانني كنت معروفا بالفروسية واللعب بالسلاح وأملوا

(*) في العبارة إيجاز بديع بالحذف اذ لم يذكر انه وصل الى القرية ولقي شبانها بل طوى ذلك لدلالة مابعده عليه . وقد اقتدى وجه الله في هذا بأسلوب الكتاب العزيز

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أن أقيم معهم مدة يلهو فيها كل منا بصاحبه . أدركني صاحبي وبني معي الى العصر وأرادني على السفر فقلت له خذ القوس وارجع وسأذهب صباح الغد وان شئت قلت لوالدي انني سافرت الى طنطا فانصرف وأخبر بما أخبر وبقيت في هذه القرية خمسة عشر يوما تحولت فيها حالتي، وبدلت فيها رغبة غير رغبتي »

« ذلك ان أحد اخوال أبي واسمه الشيخ درويش سبقت له أسفار الى صحراء ليبيا ووصل في أسفاره الى طرابلس الغرب وجلس الى السيد محمد المدني والد الشيخ ظافر المشهور الذي كان قد سكن الاستانة وتوفي بها وتعلم عنده شيئا من العلم واخذ عنه الطريقة الشاذلية وكان يحفظ الموطأ وبعض كتب الحديث ويجيد حفظ القرآن وفهمه ثم رجع من أسفاره الى قريته هذه واشتغل بما يشتغل به الناس من فلح الأرض وكسب الرزق بالزراعة

« وإن هذا الشيخ جاءني صبيحة الليلة التي بتها في الكنيسة وبيده كتاب يحتوي على رسائل كتبها السيد محمد المدني الى بعض مريديه بالأطراف بخط مغربي دقيق وسألني ان أقرأ له فيها شيئا لضعف بصره فدفعت طلبه بشدة ولعنت القراءة ومن يشتغل بها ونفرت منه أشد النفور ولما وضع الكتاب بين يدي رميته إلى بعيد لكن الشيخ تبسم وتجلى في أتلطف مظاهر الحلم ولم يزل بي حتى أخذت الكتاب وقرأت منه بضعة أسطر فاندفع يفسر لي معاني ما قرأت بعبارة واضحة تغالب إعراضي فتغلبه وتسبق إلى نفسي . وبعد قليل جاء الشبان يدعوني الى ركوب الخيل واللعب بالسلاح والسباحة في نهر قريب من القرية فرميت الكتاب وانصرفت اليهم . بعد العصر جاءني الشيخ بكتابه وألح علي في قراءة شيء منه

هذا من تركته إلى اللعب وفعل في اليوم الثاني كما فعل في الأول

أما اليوم الثالث فقد بقيت اقرأ له فيه وهو يشرح لي معاني ما أقرأ نحو ثلاث ساعات لم أسأله فيها فقال لي إني في حاجة الى الذهاب إلى المزرعة ليعمل بعض العمل فيها فطلبت منه إبقاء الكتاب معي فتركه ومضيت أقرأه وكلما مررت بعبارة لم أفهمها وضعت عليها علامة لأسأله عنها الى أن جاء وقت الظهر وعصيت في ذلك اليوم كل رغبة في اللعب وهوى ينازعني الى البطالة، وعصر ذلك اليوم سألته عما لم أفهمه فأبان معناه على عادته وظهر عليه الفرح بما تجدد عندي من الرغبة في المطالعة والميل إلى الفهم

«كانت هذه الرسائل تحتوي على شيء من معارف الصوفية وكثير من كلامهم في آداب النفس وترويضها على مكارم الأخلاق وتطهيرها من دنس الرذائل وتزهيدها في الباطل من مظاهر هذه الحياة الدنيا

«لم يأت عليّ اليوم الخامس الا وقد صار ابغض شيء إليّ ما كنت أحبه من لعب ولهو، وخفة وزهو، وعاد أحب شيء اليّ ما كنت أبغضه من مطالعة وفهم وكرهت صور اولئك الشبان الذين كانوا يدعونني الى ما كنت أحب ويزهدونني في عشرة الشيخ رحمه الله فكنت لا احتمل أن اري واحدا منهم بل افر من لقائهم جميعا كما يفر السليم من الأجرب. في اليوم السابع سألت الشيخ ما هي طريقتكم فقال طريقتنا الاسلام فقلت أو ليس كل هؤلاء الناس مسلمين؟ قال لو كانوا مسلمين لما رأيتهم يتنازعون على التافه من الأمور ولما سمعتهم يحلفون بالله كاذبين بسبب وبغير سبب. هذه الكلمات كانت كأنها نار أحرقت جميع ما كان عندي

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

من المتاع القديم ـ متاع تلك الدعاوى الباطلة والمزاعم الفاسدة، متاع الغرور بأننا مسلمون ناجون، وان كنا في غمرة ساهين، سألته ما وردكم الذي يتلى في الخلوات أو عقب الصلوات، فقال لا ورد لنا سوى القرآن نقرأ بعد كل صلاة أربعة أرباع مع الفهم والتدبر: قلت أنى لي أن أفهم القرآن ولم أتعلم شيئا قال أقرأ معك ويكفيك ان تفهم الجملة وبركتها يفيض الله عليك التفصيل وإذا خلوت فاذكر الله على طريقة بينها. وأخذت أعمل على ماقال من اليوم الثامن فلم تمض علي بضعة أيام إلا وقد رأيتني أطير بنفسي في عالم آخر غير الذي كنت أعهد، (١) واتسع لي ما كان ضيقا، وصغر عندي من الدنيا ما كان كبيراً، وعظم عندي من أمر العرفان والنزوع بالنفس الى جانب القدس ما كان صغيرا، وتفرقت عني جميع الهموم ولم يبق لي الا هم واحد وهو أن أكون كامل المعرفة كامل أدب النفس ولم أجد إماما يرشدني الى ماوجهت اليه نفسي الا ذلك الشيخ الذي أخرجني في بضعة أيام من سجن الجهل الى فضاء المعرفة، ومن قيود التقليد، الى إطلاق التوحيد، ـ هذا هو الأثر الذي وجدته في نفسي من صحبة أحمد أفاربي وهو الشيخ درويش خضر من أهالي (كنيسة ادرين) من مديرية البحيرة. وهو مفتاح سعادتي ان كانت لي سعادة في هذه الحياة الدنيا، وهو الذي ردلي ما كان غاب من غريزتي، وكشف لي ما كان خفي عني مما أودع في فطرتي،

«وفي اليوم الخامس عشر مر بي أحد سكان بلدتنا (محلة نصر) فأخبرني

(١) سنذكرها ثم في تاريخه المطول مدى ماقاله في تأثير التصوف في نفسه ومالم يقله وبين ما كان له من النفحة والشعور الذي تلاشاه السيد جمال الدين في زيه فقيدنا الثانية

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ان والدتي ذهبت الى طنطا لتراني فعلمت ان سيقول لوالدي انني لا أزال في الكتيبة فأصبحت مبكرا الى طنطا خوف عتاب الوالد واشتداده في اللوم لانني لو كنت أقمت له ألف دليل على انني وجدت في مهربي مطلبه ومطابي لما اقتنع

«ذهبت الى طنطا وكان ذلك قرب آخر السنة الدراسية في شهر جمادى الآخرة من سنة ١٢٨٢ هجرية لكن اتفق ان بعض المشايخ كانت ماتت بنته فعاقه الحزن عليها عن اتمام شرح الزرقاني على العزية وآخر عرض له عارض منعه عن إتمام شرح الشيخ خالد على الآجرومية فأدركت كلا منهما في أوائل الكتاب الذي كان يدرسه وجلست في الدرسين فوجدت نفسي افهم ما أقرأ وما أسمع والحمد لله. وعرف ذلك مني بعض الطلبة فكانوا يلتفون حولي لأطالع معهم قبل الدرس ما سنلقاه. وفي يوم من شهر رجب من تلك السنة كنت أطالع بين الطلبة وأقرر لهم معاني شرح الزرقاني فرأيت أمامي شخصا يشبه ان يكون من أولئك الذين يسمونهم بالمجاذيب فلما رفعت رأسي اليه قال ما معناه: ما أحلى حلوى مصر البيضاء: فقلت له وأين الحلوى التي معك؟ فقال سبحان الله من جد وجد. ثم انصرف فعددت ذلك القول منه إلهاما ساقه الله الي ليحملني على طلب العلم في مصر دون طنطا

«وفي منتصف شوال من تلك السنة ذهبت الى الأزهر وداومت على طلب العلم على شيوخه مع محافظتي على العزلة والبعد عن الناس حتى كنت استغفر الله اذا كلمت شخصا كلمة لغير ضرورة. وفي أواخر كل سنة دراسية كنت أذهب الى (محلة نصر) لأقيم بها شهرين - من منتصف شعبان الى منتصف شوال - وكنت عند وصولي الى البلد أجد خالي والدي

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الشيخ درويش قد سبقني اليه فكان يستمر معي بدارسي القرآن والعلم الى يوم سفري . وكل سنة كان يسألني ماذا قرأت فأذكر له مادرست فيقول : مادرست المنطق مادرست الحساب مادرست شيئا من مبادىء الهندسة : وهكذا وكنت أقول له بعض هذه العلوم غير معروف الدراسة في الازهر فيقول : طالب العلم لا يعجز عن تحصيله في أي مكان : فكنت اذا رجعت الى القاهرة ألتمس هذه العلوم عند من يعرفها فتارة كنت أخطئ في الطلب واخرى أصيب الى ان جاء المرحوم السيد جمال الدين الافغاني الى مصر أواخر سنة ١٢٨٦

«وقد صاحبته من ابتداء شهر المحرم سنة ١٢٨٧ وأخذت أتلقى عنه بعض العلوم الرياضية والحكمية (الفلسفية) والكلامية وأدعو الناس الى التلقي عنه كذلك وأخذ مشايخ الازهر والجمهور من طلبته يقولون عليه وعلينا الاقاويل ويزعمون أن تلقي تلك العلوم قد يفضي الى زعزعة العقائد الصحيحة وقد يهوي بالنفس في ضلالات تحرمها خيري الدنيا والآخرة فكنت اذا رجعت الى بلدي عرضت ذلك على الشيخ درويش فكان يقول لي : ان الله هو العليم الحكيم ولا علم يفوق علمه وحكمته وإن أعدى أعداء العليم هو الجاهل واعدى أعداء الحكيم هو السفيه وما تقرب أحد الى الله بأفضل من العلم والحكمة فلا شيء من العلم بمقوت عند الله ولا شيء من الجهل بمحمود لديه الا ما يسميه بعض الناس علما وليس في الحقيقة بعلم كالسحر والشعوذة ونحوهما اذا قصد من تحصيلهما الاضرار بالناس : »

هذا ما كتبه الفقيد عن مبدإ تربيته وتعلمه في ترجمته التي كتبها لي قبل اشتداد مرضه الاخير وكان حدثني قبل بشيء من ذلك ومنه أنه لم يكن

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يواظب على حضور دروس من لا يفهم أولا يستفيد منهم وانه ربما كان يحضر درس أحدهم وفي يده كتاب آخر يطالع فيه مدة الدرس وان من شيوخه الذين فهم منهم واستفاد في أول تحصيله الشيخ محمد البسيوني وانه بعد الحضور في الازهر ثلاث سنين من الدروس المعتادة كأنه أخذ حظه منها وصارت نفسه تطلب شيئا جديدا وتميل الى العلوم العقلية ولكنه حضر جميع الكتب وفهمها ولم يكن يرتاح الى إعادة شيء منها. وكان الشيخ حسن الطويل ممتازا في الازهر بعلم المنطق ففضره عليه ولم يكن يشفي ما في نفسه بل كانت تتشوف دائما الى علم غير موجود فكان يبحث في خزائن الكتب الازهرية عن طلبته المجهولة فيظفر ببعض الشيء ومما ظفر به القطب على الشمسية ناقصا. وقرأ الشيخ حسن الطويل لهم شيئا من الفلسفة ولكن لم يكن يجزم بأن المعنى كذا بل كان الدرس احتمالات أو اشبه بالحزر فيما يفهم حتى جاء السيد جمال الدين فسكنت اليه نفسه من اضطرابها ووجدت عنده جميع طلبتها، وأقصى أمنيتها، واخبرني رحمه الله تعالى ان الذي أخبره بقدوم السيد جمال الدين هو أحد المجاورين في رواق الشوام قال له انه جاء مصر عالم افغاني عظيم وهو يقيم في خان الخليلي فسر بذلك واخبر الشيخ حسنا ودعاه الى زيارته معه فألفياه يتعشى فدعاهما الى الأكل معه فاعتذرا فطفق يسألهما عن بعض آيات القرآن وما قاله المفسرون والصوفية فيها ثم يفسرها لهم فكان هذا مما ملأ قلب فتيدنا به عجبا وشغفه حبا لان التصوف والتفسير هما قرة عينه أو كما قال مفتاح سعادته. وأخبرني رحمه الله تعالى انه قرأ على السيد كتاب الزوراء للدواني في التصوف، وشرح القطب على الشمسية والمطالع وسلم العلوم من كتب المنطق، والهداية والاشارات وحكمة العين

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وحكمة الاشراق من الفلسفة ، وعقائد الجلال الدواني والتوضيح مع التلويح في الاصول ، والجغميني في الهيئة القديمة وكتابا آخر في الهيئة الجديدة نسيت اسمه .

ثم ان السيد أرشده كثير من تلامذته الى الانشاء وكتابة المقالات الادبية والاجتماعية والسياسية ومرنهم على الخطابة فبرع فقيدنا في ذلك حتى صار أبرع من أستاذه نفسه لان عبارة السيد رحمه الله تعالى كانت على متانتها وبلاغتها لم تصف من كدورة العجمة الى صفاء الانسجام العربي الخالص كعبارة الشيخ ثم ان مجالس السيد في ناديه ومسامره كانت كلها مجالس علم وحكمة وأدب وسياسة وقلما كان يفوت فقيدنا شيء منها اذ كان يلازمه ملازمة ظله وما يستفيده المرء بالمذاكرة في ساعة لا يستفيده بالدرس في ساعات لان المدرس يكفيك كل ما يلقيه اليك سواء كنت تشعر بالحاجة اليه وتعتقد الاستفادة منه أم لا وسواء كنت مستعدا لفهمه أم لا ، وأما المذاكرة فهي مشاركة اختيارية في البحث والانسان لا يختار الا ما يرى نفسه محتاجة اليه ومستعدة لفهمه فمثل الدرس يلقى اليك كمثل من يكفيك أن تأكل مقدارا معينا من الاطعمة التي قد تعاف بعضها ولا تستطيع تناولها الا بكلفة وغثاثة فأنت لا تتغذى الا ببعضها والباقي إما أن يضر وإما أن لا ينفع ومثل المذاكرة كالطعام الذي تشتهيه وتتناول منه ما يكفيك فيكون كله غذاء نافعا . وقد قال بعض علماء التربية من الافرنج انه قلما يفلح من يقيم في مدارس العلم زمنا طويلا . ولقد كانت مجالس استاذنا الفقيد كمجالس استاذه (رحمهما الله) تفيض علما وحكمة وأدبا ولكن الفضل بينهما في هذا هو ان السيد كان يلقي الحكمة لكل أحد وأما الشيخ فكان

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تخاطب كل أحد أو كل فريق بما يرى انه مستعد له ومتوجه اليه وقد قال لي رحمه الله تعالى ان السيد جمال الدين كان يلقي الحكمة لمريديها وغير مريديها ومن خواصه انه يجذب مخاطبه الى ما يريد وان لم يكن من أهله وكنت أحسده على ذلك لانني تؤثر في حالة المجلس والوقت فلا تتوجه نفسي للكلام الا اذا رأيت له محلا وهكذا الكتابة الخ ماقاله وسنذكره في محله من تاريخه ان شاء الله تعالى

تدريسه ودعوته الى اصلاح التعليم في الازهر

كان عفا الله عنه قبل أخذ شهادة التدريس يطالع مع بعض الطلاب الدروس التي يحضرونها في الازهر ثم اتفقت الرغبة على أن يقرأ لطائفة منهم بعض الكتب فقرأ لهم إيساغوجي في المنطق ثم شرح العقائد النسفية لسعد التفتازاني مع حواشيه ثم مقولات السجاعي بحاشية العطار وغير ذلك من الكتب التي لم تكن تقرأ في الازهر فكثر سواد المجتمعين عليه وكان يدعوهم الى مطالعة مالم يتعودوا من الفنون والكتب ويفتح لهم أبواب المذاكرة والمناقشة ليلا فكانوا يقتالون الليل ولا يشعرون بطوله وفتن الاذكياء بحسن بيانه ودقة فهمه وحسده أناس منهم فأحفظوا عليه قلب الشيخ عليش فكان ما كان من حادثته معه اذ ذهب ابن للشيخ عليش مع طالب آخر فقالوا ان فلانا يقرأ شرح العقائد النسفية وقد رجح في درسه أمس مذهب المعتزلة على مذهب الاشعرية وكان الشيخ عليش رحمه الله أذنا يصدق بكل ماسمع وكان شديد الغيرة في الدين حديد المزاج سريع الغضب فكبر عليه أن يقرأ أحد الطلاب مثل ذلك الكتاب الذي لم يكن الشيوخ الكبار يتساهلون لقراءته فارسل الى الفقيد فجاءه وهو

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

يقرأ الدرس في المسجد الحسيني فقال الشيخ عليش بلغني انك تقرأ شرح العقائد النسفية دوسا قال نعم : قال الشيخ عليش وبلغني انك رجعت مذهب المعتزلة على مذهب الاشعرية قال اذا كنت أترك تقليد الاشعري فلماذا أقلد المعتزلي إذًا أترك تقليد الجميع وآخذت بالدليل قال الشيخ عليش اخبرني الثقة بذلك قال هلم الثقة الذي يشهد بذلك فليميز أمامنا هنا بين المذهبين وليخبرنا أيهما رجحت : قال الشيخ عليش أو مثلك يفهم شرح العقائد قال الكتاب حاضر وأنا حاضر فسلني ان شئت : فكبر على الطلبة الحاضرين مثل هذه المراجعة من طالب للشيخ عليش المهيب وقال بعضهم ان هذا يرسل شعره ويجمعه تحت عمامته وأخذ عمامته عن رأسه ولفط الحاضرون فتركهم الفقيد رحمه الله تعالى وذهب حاسرا عن رأسه فقال أناس ان الشيخ عليشا ضربه وقال آخرون انه منعه من الدرس وكثرت الاشاعات والاقوال والروى والاحلام فيه وفي السيد جمال الدين والصواب ان هذا كل ما حصل وان الفقيد لم يمتنع من قراءة الدرس ولكنه كان يضع بجانبه عصا وقال اذا جاء الشيخ بمكازه فله هذه العصا وكان من الشجاعة على ما يعهد عارفوه كما سنبين ذلك في الكلام على أخلاقه . أما تأثير هذه الحادثة فقد كان أكبر منها بل كان هو مبدأ خوض بعض الجامدين في دين كل من السيد الحكيم والاستاذ الامام رحمهما الله تعالى وسنعقد لذلك فصلا خاصا في تاريخ الفقيد نبين فيه انه لم يسلم أحد من أئمة الدين ولا من كبار الحكماء والصوفية من مثل هذا الطعن وأنه من مناقب حكيمينا قدس الله روحهما وان الذين يتشفون بمثل هذا الخوض من الاعداء والحاسدين ومن يقلدهم من المساكين والمجانين لو عقلوا لكتموه

www.alukah.net

وسموا في ازالته

نعم ان ذلك الخوض والقول مما نزين به تاريخ هذين الحكيمين ولكن لا ننكر ان تأثيره السيء وقع على الأمة الاسلامية عامة وعلى الازهر خاصة دون الرجلين اللذين لم يحترم الناس لاسيما عقلاء الامة الاسلامية في هذا العصر أحداً من أهل المشرق كاحترامهم لهما فذلك انه كان عقبة في سبيل إصلاحهما واستفادة الأمة منهما وهما مأجوران عند الله تعالى بحسن نيتهما وبذلهما جهد المستطاع في خدمة امتهما وملتهما. وقد كاد يترتب على ذلك حرمان فقيدنا من شهادة العالمية ومرتبة التدريس في الازهر لولا عدل الشيخ العباسي وإنصافه. كتب الاستاذ الامام رحمه الله عن امتحانه ما نصه:

« عرضت نفسي على مجلس الامتحان في ١٣ جمادى سنة ١٢٩٤ هجرية وابتليت في الامتحان أشد الابتلاء لتعصب الأكثر من أعضائه مع المرحوم الشيخ عليش وكان يعاديني تلى الغيب اتباعا لآراء من لا رشد عندهم من بلداء الطلبة، وكانوا قد أجمعوا أمرهم على ان لا يمنحوني درجة ما في العلم وجرت أمور قبل الامتحان يطول شرحها ولكن كان أمر الله أغلب فخرجت من هذا الامتحان بالدرجة الثانية وصرت مدرسا من مدرسي الجامع الازهر وأخذت أقرأ العلوم الكلامية والمنطقية » الخ

وقد أخبرني رحمه الله ان بعض الشيوخ تقاسموا قبل الامتحان يمينا مؤكدة لا يأخذن فلان درجة ما ولما وقع الامتحان ورأوا من حسن الجواب عما سألوه فوق ما كانوا ينتظرون، طفقوا يناقشون ويراجعون، وينتقلون به ويستطردون، حتى صار الامتحان مناظرة، تتولاها المشاغبة

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

والمكابرة ، فعند ذلك حلف الشيخ العباسي انه لم يراحدا امتحن في عصره مثله وأنه لو كان فوق الدرجة الاولى درجة ممتازة لاستحقها فأراد أحد الشيوخ واظنه الشيخ الرافعي ان يوفق ويصلح فأخذ الورقة وكتب له بالدرجة الثانية وطفق يمرضها على اخوانه الذين كانوا متفقين على حرمانه ليوقعوا عليها فوقعوا ثم أعطوها للشيخ العباسي فأمضاها لهم ولم يجب ان يراجعهم بعد أن رأى منهم ما رأى فظفروا ببعض المطلوب وهو حرمانه من الدرجة الاولى وما كانوا ضائرين .

طلبه العلم بعد التدريس والدخول في الاعمال

هذا مجمل سيرة الرجل في تلقي العلم عن الشيوخ منذ بدأ الى أن صار مدرسا وانك لتجد أكثر طلاب العلوم عندنا يعدون أخذ شهادة العالمية غاية التحصيل والتعلم فلا تتوجه همتهم بعده الا الى استغلال العلم وطلب المال به واحراز الجاه والمكانة عند الناس بما ينالون به من وظيفة وعمل . وان صاحبنا لم يسلك مسلكهم بل سار على سبيل سلفنا الصالح الذين يؤثر عنهم : اطلب العلم من المهد الى اللحد : فكان يقول الى آخر حياته انني لا أزال طالب علم أبتغي المزيد منه في كل يوم . فكان له في طلب العلم ثلاثة أدوار أولها الطلب على طريقة الازهر المعروفة من المناقشة في عبارات كتب المؤلفين وقراءة المتون مع الشروح والحواشي والتقارير . سلكها زمنا حتى ملها وتوجهت نفسه الى علم أعلى وفهم أجلى فقيض الله تعالى له ذلك العلامة الحكيم السيد جمال الدين فقرأ له علوما أخرى على طريقة أسهل مسلكا وأقرب غاية ، فانتاشه من الاخلاد الى أرض العبارات الركيكة والاساليب الضعيفة ، والاحتمالات البعيدة ، ورفعه الى سماء عرفان الحقيقة ،

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والافصاح عنها بالعبارة الرشيقة، بعد إطلاقه من قيود تقليد المؤلفين، وتعويده على الحكم باليقين، فهذا هو الدور الثاني وهو خاص كسابقه بالعلوم الاسلامية، التي كتبت باللغة العربية، مع شيء قليل من العلوم الحديثة، وتطبيق العلم على حال المسلمين الاخيرة، وأما الدور الثالث فهو النظر في علوم الافرنج قرأ رحمه الله كثيرا مما ترجم من الكتب ثم تعلم اللغة الفرنسية فصار يقرأ الكتب فيها لا يكاد يتركها يوما من الايام. وكانت عنايته بعلوم الاخلاق والنفس وأصول الاجتماع الانساني والتاريخ وفلسفته وفن التربية أشد من عنايته بسائر العلوم وقلما علم بكتاب لافرنجي يتكلم فيه عن الاسلام والمسلمين الا واستحضره وقرأه وقد قرأ عدة كتب في تربية الارادة خاصة، وفي سفره الاخير إلى سويسره تعلم هناك القلم المسند لانه علم ان في بعض المكاتب الاوربية كتبا فيه وان الانكليز نقلوا من حضرموت بعض ما هنالك من الآثار الحميرية ولذلك دخل شأن في تاريخ العرب والاسلام.

وهذه العلوم الافرنجية هي التي أعطته القوة العظيمة في المدافعة عن الاسلام وفي زيادة البصيرة بخدمته لانه عرف من أين يهاجمه أعداؤه وكيف ترد هجماتهم. وكان يقول من لم يعرف لغة من لغات العلم الاوربية لا يعد عالما في هذا العصر وقد كتب لي في ترجمته عن تعلمه اللغة الفرنسية ما نصه:

« بدأت بتعلم اللغة الفرنساوية عند ما كانت سني أربعا وأربعين سنة ولكن ميلي الى تعلم لغة أجنبية ابتدأ في أثناء الحوادث العرابية فتعلمت الهجاء ثم تركته ونسيته تقريبا وعند ما سافرت الى فرنسا أول مرة أقمت هناك عشرة أشهر كنت أحرر فيها جريدة العروة الوثقى ولم أتعلم شيئا من الفرنساوية لان اجتماعي كان بالسيد جمال الدين وبرفاق من العرب واشتغالي

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

بتحرير تلك الجريدة كان لا يسمح لي بوقت كاف للتعلم بدراسة منتظمة فذهب علي ذلك الزمن بدون فائدة في اللغة لا كثيرة ولا قليلة . أما بعد عودتي من النفي الى مصر واشتغالي بالقضاء في المحاكم الاهلية والحكم بها خصوصا في الجنايات على أصول القوانين الفرنساوية وجلوسي بين قضاة يغلب عليهم العلم بتلك القوانين في لغتها فقد قوي عندي الميل الى تعلم اللغة الفرنساوية حتى لا أكون في معرفة القوانين أضعف ممن أجالس معهم مجالس القضاء وبعد مجيئي الى القاهرة واشتغالي بالقضاء في إحدى محاكمها وجدت الوقت والحال مناسبين للبدء في العمل فبحثت عن معلم فوجدت أستاذا الابأس به فدعوته فجاءني حاملا كتاب نحو في يده (كراميز) فسألته ما هذا فقال كتاب نحو فقلت له لا وقت عندي لان ابتدىء وانما عندي زمن لان أنتهي ثم ناولته قصة من تأليف الكسندر دوماس وقلت له أنا أقرأ وانت تصلح لي النطق وتفسر لي الكلم وما عدا ذلك فهو علي والنحو يأتي في اثناء العمل ، وهكذا أتممت الكتاب وكتابا بعده وثالثا عقبه وكنت أطالع وحدي بصوت مرتفع كلما وجدت نفسي في بيتي خاليا فتعلمت مبادىء اللغة الفرنساوية وحصلت منها ما كان يمكنني من القراءة والفهم لكن ما كنت أستطيع الكلام

« سافرت بعد ذلك الى فرنسا وإلى سويسرا عدة مرات في أيام العطلة الصيفية وكنت أحضر دروس العطلة في كلية جنيف وبهذه الطريقة تعلمت اللغة الفرنساوية في أوقات الفراغ مع اشتغالي بالقضاء في المحاكم الابتدائية ومحاكم الاستئناف . ثم ان الذي زادني تعلقا بتعلم لغة أوربية هو أني وجدت انه لا يمكن لاحد ان يدعي انه على شيء من العلم يتمكن

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

به من خدمة أمته ويقتدر به على الدفاع عن مصالحها كما ينبغي الا اذا كان يعرف لغة أوربية كيف لا وقد أصبحت مصالح المسلمين مشتبكة مع مصالح الاوربيين في جميع أقطار الارض وهل يمكن مع ذلك لمن لا يعرف لغتهم أن يشتغل للاستفادة من خيرهم أو للخلاص من شر الشرار منهم» اه

الكلام في تربيته خاصة

هذا ما يقال في طلبه للعلم وأما تربيته فقد علم مما مر شيء منها وهو أنه نشأ في بيت يوصف أهله بالاخلاق الفطرية الحميدة التي لا ينقصها الا نور العلم وقد كان له ولم يعن في صباه الا بالفروسية وأعمال الرجولية فكان يلعب بالسلاح ويسابق الناشئين معه على ظهور الجياد ويكثر من السباحة وهذه الالعاب مما يحسن أن يربى عليها الولدان بالقصد كما قال الحكماء وعلماء التربية وهي مما يربى عليه أولاد الملوك والامراء في أوربا . بعد ان أخذ حظه من هذه التربية الفطرية أخذه الشيخ درويش خضر بالتربية الدينية فألزمه العزلة ومجاهدة النفس . وكان من جملته أن يأخذ كل شيء بقوة فكان في مدة طلبه للعلم يصوم النهار ويقوم الليل بالصلاة والتلاوة والذكر ويمشي مطرقا لا ينظر الا حيث يضع قدميه ولا يكلم أحدا الا لضرورة وقد ظل عدة سنين لا يلقي نظره على امرأة أجنبية حتى في الطريق . وقد كان لكثرة الانهماك في الذكر والفكر والنظر في كتب التصوف والتنقل في أحوال القوم ومقاماتهم يخرج عن حسه ويزج في عالم الخيال أو عالم المثال كما يقولون فيناجي أرواح السابقين . ولو كان يجيز شرح ذلك لشرحناه ولكنه كان يقول ان ما يحصل للصوفية من الاحوال غير الطبيعية لا يجوز ذكره لغير العارف به ولا تجوز كتابته بحال ولو

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

كنت ملكا لملكت بقتل الذين يكتبون ذلك لانهم يفتنون كثيرا من الناس ولا يفيدون به أحدا. وقال ما معناه مازج أحد نفسه في عالم الخيال ثم قدر على الخروج منه الا ان يجذبه جاذب آخر ويخرجه منه وذلك قليل. وأقول إن السيد جمال الدين هو الذي أخرجه منه، ورقى به الى ما هو خير منه، ولم يتمكن من ذلك الا بعد ان جاراه عليه زمنا عرفه به أنه أعرف بتلك المعاهد، وأسبق الى تلك المشاهد، بما كان يحل له من عقد كلام الصوفية التي يعجز عن حلها، حتى أقنعه بأنه من أفراد أهلها، وسنذكر في التاريخ الكبير الذي نضعه ما فقيدنا شيئا مما كتبه على طريقة الصوفية. واقول هنا لو كان الجماهير من الناس يعرفون في أيام حادثة الشيخ عليش شيئا من أمر الرجل في تصوفه وتنسكه لهاجوا على الشيخ عليش وان كانت شهرته بالصلاح عظيمة وعلى من وشى اليه من فساق المجاورين ولما خاضوا في فقيدنا بالذي خاضوا ولكنه كان يبالغ في كتمان ذلك خوفا من الرياء وحب السمعة والامة مستعدة للشر والشبهة عليه حضور كتب الفلسفة والكلام على عالم غريب وهو السيد رحمهم الله أجمعين

قلنا ان السيد جمال الدين هو الذي نقل فقيدنا من حال الى حال في التربية كما نقله في العلم وكان الشيخ درويش هو الذي مهد له السبيل للأمرين. وقبل ان ننتقل من الكلام في تربيته وتعليمه الى الكلام في عمله وإصلاحه نذكر ان الشيخ درويشا هو الذي رباه أيضا على التعرض للارشاد الديني والتصدي لنصيحة الناس فهذه السبيل التي سلكها به السيد جمال - سبيل الاصلاح العلمي والسياسي. ذلك ان الشيخ درويشا رأى ان مريده قد كملت نفسه بعد المزلة الطويلة وكمل سلوكه فصار بأمن من المعاشرين الذين يقطعون الطريق على المريدين فأمره بمخالطة الناس والتعرض لارشادهم وقد كتب رحمه الله في ذلك ما نصه:

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

« قلت انني كنت في أوائل مدة طلب العلم بعد مجيئي الى الازهر في عزلة عن الناس الا من استفيد منه علما أو نصيحة لكن بعد مضي سبع سنين على ذلك - والشيخ يقودني في سبيل الرياضة وقهر النفس على المكاره بالصوم تارة وبلبس الخشن والتعرض لانتقاد الناس تارة أخرى - قال لي عند ما رجعت الى عملة نصر في سنة ١٢٨٨ : الى متى هذه العزلة وما الفائدة في العلم وتحصيله اذا لم يكن لك نور تهتدي به ويهتدي به الناس ؟ ان من المكروه أن تستأثر بالفائدة دون أهل ملتك وان من لم ينفع بما تعلم فقد أضاع أهم ثمرة تقصد من غراس المعرفة فعليك ان تخالط الناس وتعظهم وترشدهم الى الطريق القويمة والسنة الصالحة : فذكرت له استيحازي من الناس وزهادتي في معاشرتهم وثقلهم على نفسي اذا لقيتهم وبعدهم عن الحق ونفرتهم منه اذا عرض عليهم فقال لي : هذا من أقوى الدواعي الى ما حثثتك عليه فلو كانوا جميعهم هداة مهديين لما كانوا في حاجة اليك : ثم أخذ يستصحبني في مجالس العامة ويفتح الكلام في الشؤون المختلفة ويوجه الي الخطاب لأتكلم فيتكلم الحاضرون فأجيبهم وانطلق في القول على وجل في أول الامر وما زال بي حتى وجد عندي شيء من الالفة مع الناس والاستئناس بمكالمتهم وفي شوال من تلك السنة وعني وبكى بكاء شديدا ومات في السنة الثانية رحمه الله تعالى » اه أقول يظهر انه أحس بأن عمله قد تم بتكميل تربية مريده وأنه ألهم بأنه قد دنا أجله إذ تم عمله فبكى بكاء مودع وللصوفية من هذا الإلهام والشعور ، ما هو معروف مشهور ،

طور العمل والاصلاح

(تمهيد) لو سأل سائل أي الرجال أعظم في الامة وأفضل لاختلف

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الجواب باختلاف أفهام الأفراد ومذاهبهم فهذا يقول أعظمهم العالم وذاك يقول بل الفيلسوف، ويقول ثالث بل هو الرجل الصالح فيخرج رابع قائلا بل القائد الفاتح ويخالفهم رجل آخر يدعي أن أفضل الناس السياسي الحاذق ويقول آخرون أقوالا أخرى. وإذا رجعت بالجميع إلى البرهان رأيتهم يتفقون على أن أعظم الرجال وأفضلهم المصلحون الذين يوجهون عزائمهم إلى رفع الأمة من الدرجة الدنيا إلى الدرجة العليا، وهؤلاء قلما تجود الأجيال بواحد منهم على كثرة العلماء والصلحاء والقواد السياسيين في كل زمان

إنما يكون الرجل عظيما بأمرين أحدهما فطري لا يأتي بالكسب وهو الاستعداد الذي يكون له بكمال الخلقة واعتدال المزاج، وحسن الوراثة للوالدين والأجداد، وثانيهما كسبي وهو التربية القويمة والتعليم النافع، وقد كان استعداد الأستاذ الإمام لكل أمر عظيما حتى كان استعداده هو الأصل في حسن تربيته وتعليمه. فقد علمت مما مر أن فطرته السليمة لم تقبل الاستمرار على حضور دروس لا تفهمها ولم يعرف هذا عن غيره من المبتدئين بطلب العلم حتى أذكياؤهم الذين استفادوا بعد العناء فقد كانوا يصبرون على مالا يفهمون زمنا طويلا وإذا حفظ أحدهم شيئا بالتكرار ظن أنه هذا فهم وعلم لا سيما إذا حفظ تفسير المتن من شرحه وحاشيته. ولكن صاحبنا لم يكن يترك المسألة حتى يفهمها ويوقن أو يرجح أن الحكم فيها كذا ولذلك أسرع إليه الملل من دروس مشايخ الاحتمالات. وكان يقول أن حضور كتب التربية على طريقتهم قد أضر بذهنه وعقله وأنه ظل يكدس ذهنه وينظفه منها بضع سنين فلم ينظف تمام النظافة. وأما السيد جمال الدين فإنه كثيرا ما كان يشرح معنى المسألة حتى تتجلى للأفهام ثم يقرأ عبارة الكتاب ويطبقها

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

عليها فان انطبقت والا أبان ما فيها من التقصير أو يقرأ العبارة ويبحث في دليلها فيقرها أو يفندها ويجزم بغير هو بهذه الطريقة ارتقى الى أن يحكم بنفسه في المسائل ولا يرضى بالفهم مع التسليم لمؤلف الكتاب فالذي امتاز به صاحب الترجمة على اخوانه الازهريين هو أنه في بدايته لم يرض أن يحضر شيئا لا يفهمه، وفي نهايته لم يرض بما يفهمه الا بعد أن يستشير فيه الدليل فيرضاه له، وأنه لم يقنع بالعلوم المتداولة في الازهر بل كان من أوائل عهده بالعلم الى يوم وفاته يطلب العلوم ويقدم منها ما يزيده كمالا في نفسه ويعينه على رفع شأن ملته وأمته، ولو انه تعلم في حداثته على طريقة قويمة كما تعلم النابغون من حكماء أوربا وعلمائهم في المدارس النظامية ولم يضيع ذلك الوقت الطويل في البطالة وفي الطريقة الازهرية الملتوية لرأينا من آياته العلمية أضعاف ما رأيناه على أن ما رأيناه يكاد يكون من الخوارق فانه لم يكن يتكلم في علم الا وتراه صاحب القدح المعلى فيه حتى كأنه هو الواضع له، فمن شاء أن يقتدي بطريقته المثلى من الازهريين وغيرهم فليفعل عسى أن يكون من المفلحين

وأما تربيته فقد علمت مما تقدم آنفا انه تربى على طريقة الصوفية القويمة الخالية من البدع والخرافات حتى ملك نفسه وكملت أخلاقه وصار الدين وجدانا له ثم انتقل من ذلك الى أخذه بالبرهان. وأهم ما اتفق له تربية الارادة أي ملكة العزيمة والاقدام فقد كان فيها نسيج وحده في أمته

تقدم ان الرجل توجهت نفسه الى العمل والاصلاح قبل ان يصير مدرسا رسميا فبدأ بإحياء اللغة ونفخ روح العلم والدين في الازهر ثم ان السيد جمال الدين وجه وجهه الى الاصلاح الاجتماعي والسياسي فجعله ساعده وعضده في ذلك فاشتغل بها مدة ثم استقر رأيه على ان الاصلاح محصور في إحياء لغة الامة وإصلاح نفوسها بالتربية الصحيحة والتعليم النافع

www.alukah.net إحدى شبكة الألوكة

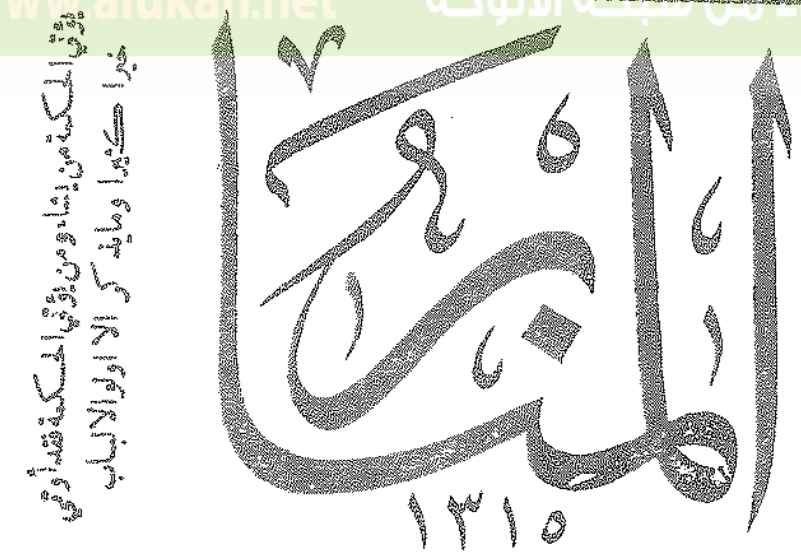

(قال عليه الصلاة والسلام: ان للاسلام صوى وهو منارا كمنار الطريق)

(مصر — غرة جمادى الثانية سنة ١٣٢٣ — ٢ اوغسطس (آب) سنة ١٩٠٥)

تتمة ملخص سيرة الاستاذ الامام

دخوله في الماسونية — من التمهيد

كان السيد جمال الدين قد أخذ على نفسه العهود والمواثيق أن يعمل عملا عظيما ينهض بدولة إسلامية نهوضا يعيد للاسلام مجده وكان مضطلعا بذلك الا انه كان مستعجلا يريد أن يعمل هذا العمل العظيم ويرى أثر نجاحه وثمرة غراسه في حياته لذلك جاءه من طريق الحكومة والسلطة وتوسل اليه بالعلم فاتخذ له في مصر تلاميذ بدأ يقرأ لهم كتب أصول الدين والفلسفة حتى اذا ما وثق بهم مزج لهم السياسة بالعلم وخاف استبداد اسماعيل باشا أن يحول بينهم وبين ما يشتهون فانتظم مع مريديه في سمط الجمعية الماسونية وكان باتحادهم رئيس محفل مصر فيه تلامذته على الخطابة والبحث في حياة الامم وموتها ونهوض الدول وسقوطها وقد دخل في هذا المحفل شريف باشا وبطرس باشا غالي وكثيرون من الكبراء والاذكياء. وكان توفيق باشا

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ولي عهد الخديوية مشايعا للسيد ومخذله وكان صاحب الترجمة من السيد مكانه المعلوم فكان دخوله في الماسونية متمما لتربيته وتعليمه وصلة بينه وبين توفيق باشا وكثير من رجال مصر وسببا لبحثه في أحوال الحكومة المصرية ووقوفه على نقائصها ومساوئها وتوجهه إلى السعي في إصلاحها ومهدا له الطريق للعمل الذي قام به قبيل الثورة وبعدها على ما نقصه هنا بالايجاز وفي التاريخ الذي سنؤلفه للتقيد بالتفصيل . وقبل أن ننتقل من هذا التمهيد نقول ان الاستاذ الامام رحمه الله تعالى ترك الماسونية من زمن طويل وقد أكثر أبناؤها من دعوته الى محافلها بعد رجوعه من النفي الى مصر فلم يجب وأهدوا إليه وساما فلم يقبله . وقد سألته عن حقيقتها مرة فقال ان عملها في البلاد التي وجدت فيها للعمل قد انتهى وهو مقاومة سلطة الملوك والبابوات الذين كانوا يحاربون العلم والحرية وهو عمل عظيم كان وكنا من أركان ارتقاء أوربا وانما يحافظون عليها الآن كما يحافظون على الآثار القديمة ويرونها جمعية أدبية تفيد التعارف بين الناس . وأخبرني بأن دخوله مع السيد فيها كان لغرض سياسي اجتماعي وانه قد تركها من سنين ولن يعود اليها وانها ابتذلت في مصر ابتذالا لم يكن من قبل . وأخبرني أنه أرشد مرة أحد ولاة بيروت الى إبطال محفل ماسوني علم انه يكيد للدولة العلية بايعاز بعض الدول الاوربية فهاب ذلك الوالي وظن أنه فوق قدرته ولكن الفقيد رحمه الله تعالى هداه السبيل الى ذلك وشد من عزيمته فعمل ، بل كان مبدأ اتصاحبه مع السيد جمال الدين من الماسونية عند ما جاء الى مصر رئيس الشرق الاعظم الانكليزي وهو يومئذ ولي العهد للدولة الانكليزية فاجتمعت المحافل الماسونية حفاوة به وذكر أحد رؤسائها ولي العهد بهذا اللقب فاعترض

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

السيد جمال الدين وقال انه لا يسمح بأن يحتفل بأحد على أنه ولي العهد لدولة من الدول لا سيما الدولة الانكليزية التي من وصفها كيت وكيت وليس لها فضل على الجمعية الخ ما قاله ولا أذكر منه الا مثل هذا الاجمال فرد عليه بعض رؤساء المحافل وبعد مناقشة انسحب من الماسونية هو وخواص مريديه . ولما رأى بعض علماء الازهر بعد ذلك ترقي الاستاذ الامام ونفوذه في الحكومة توهموا ان ذلك بمساعدة الجمعية له فدخل كثيرون منهم فيها ومنهم من دخل بدعوة بعض أصحابه من أهلها ولم يدخل أحد منهم لأجل عمل يفيد الامة والبلاد الا جماعة السيد جمال الدين

إصلاحه في مدارس الحكومة والازهر

اذا تعهد هذا فنقول : قد عين الفقيد في أواخر سنة ١٢٩٥ مدرسا للتاريخ في مدرسة دار العلوم وللعلوم العربية في مدرسة الألسن الخديوية فكان يدرس فيهما مع الاستمرار على التدريس في الجامع الازهر فبدأ في دار العلوم بقراءة مقدمة ابن خلدون لانها مقدمة للتاريخ وانما غرضه بث أفكاره السياسية والاجتماعية في أذهان التلاميذ فكان يطبق ما فيها من الكلام عن نهوض الدول وسقوطها وشؤون العمران وأصوله على أمته ويبين أسباب ضعفها والوسائل التي تذهب به وتعيد اليها ما فقدت من عزها ومجدها . وكان يكلف التلاميذ كتابة المقالات والفصول في ذلك فكان كل واحد يشعر بروح جديد يدب في هيكله ويرى نفسه مخلوقا لخدمة بلاده وإعلاء شأن أمته . وقد كتب رحمه تعالى في ذلك العهد كتابا حافلا في علم الاجتماع وفلسفة التاريخ انتقد فيه بعض ما قاله ابن خلدون واستدرك عليه وبين ما نسخته طبيعة الاجتماع في هذا العصر

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

من أحكام العمران في العصور الغابرة . وكان في مدرسة الألسن آية البيان في إحياء اللغة العربية وإشراع الطريق اللاحب في التعليم ، والخروج بالطلاب من مآزق العهد القديم ، ثم ان دروسه في الازهر كانت بناء جديدا للعقائد على أسس البراهين القطعية ، وتجديدا لما بلي من سائر العلوم العقلية ، وكانت حلقة درسه في الأزهر واسعة جدا تحيط بأعمدة كثيرة وكان يقرأ في بيته درسا في الاخلاق أو السياسة لطائفة من المجاورين قرأ في ذلك كتاب تهذيب الاخلاق لابن مسكويه الرازي . فكان ذلك سبب طبعه المرة الاولى وقرأ كتاب (كيزو) في السياسة ولا أدري أتمه أم لا

كان القصد من هذه الدروس تكوين نابتة جديدة من السكان في مصر تحيي اللغة العربية والعلوم الاسلامية ، وتقوم عوج الحكومة المصرية ، فقد كانت هذه الحكومة لذلك العهد قد رثت ووهت ، ووقعت في التزع أو اوشكت ، عظم فيها سلطان الاجانب ، وأحاطت بها سيول الفتن من كل جانب ، ومنيت الامة التي عمدها بالمتربة والمسغبة ، وضربت عليها الذلة والمسكنة ، ذلك بما اسرف اسماعيل باشا في الضرائب والمكوس ، وتعذيب الاجساد والنفوس ، فاما آثار اسماعيل باشا في البلاد فلا يزال الكهول والاشياخ يحدثون بها الشبان والغلمان ، واما ما فعله السيد جمال الدين ومريده الشيخ محمد عبده من السعي في إصلاح الحكومة في الحال ، وتربية الرجال لأجل الاستقبال ، فلا يعرفه الا من كان يعمل معهما ، ويتلقى عنهما ، ومن شاء من أهل هذه الديار ، أن يروي شيئا من تلك الأخبار ، فليراجع من بقي من تلامذتهما الاخيار ، كالشيخ عبد الكريم سلمان وسعد بك زغلول وابراهيم بك اللقاني وحفني بك ناصف ومحمد بك صالح وسلطان

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

افندي محمد وغيرهم. ولو طال العهد على عملهما لتم لهما المراد ولما حدثت الثورة العرابية، ولكن خانهما الزمان، وما قدر كان،

كان من عمل السيد جمال الدين ومريديه أن اتصلوا بولي العهد توفيق باشا الخديو السابق واتفقوا معه على تغيير شكل الحكومة واصلاح شؤونها فكان يعد السيد والشيخ من أقوى أنصاره وأوليائه ولما انتهى الحيف والجور والخلل بخلع اسماعيل باشا ونصب توفيق باشا أميرا على مصر في رجب سنة ١٢٩٦ طفق السيد جمال الدين يطالبه بانجاز وعوده وأولها إنشاء مجلس نواب للحكومة وجعل الوزارة مسئولة وظهرت طلائع الاصلاح على يده ولكن وجد من الواشين من غير قلبه على السيد والشيخ وأوهمه انهما يسعيان في تقييد سلطته أو إزالتها فأمر بنفي السيد فأخذ من داره ليلا في عربة مقفلة وليس عليه غير قميص واحد وأرسل في قطار خاص الى السويس ومن هناك ذهب الى الهند وأمر بعزل الشيخ من مدرسة دار العلوم ومدرسة الالسن وبان يقيم في قريته (محلة نصر) لا يفارقها الى بلدة أخرى وخاصة عاصمة البلاد والمدن الكبيرة كالاسكندرية وغيرها. وكان ذلك في رمضان سنة ١٢٩٦

عمله في المطبوعات والحكومة

وفي أواسط سنة ١٢٩٧ توجهت عناية رياض باشا الى تحسين كتابة الجريدة الرسمية وجعلها مفيدة مرغوبا فيها من الناس فاستشار الشيخ حسينا المرصفي ومحمود باشا سامي البارودي كلا على حدته فأشار برأي واحد كأنهما تواصيا به وهو جعل الشيخ محمد عبده محررا فيها ففعل بعد ان استرضى توفيق باشا فصدر الامر العالي بتعيينه محررا ثالثا وانتظر رياض باشا

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

مدة من الزمن فلم يرَ تغييرا يحمد . ثم إنه كتب من الاسكندرية بأمر قلم المطبوعات في مصر بأن تكتب مقالة في مالية مصر تلم بشيء من تاريخها الماضي وحالها الحاضر الذي وضع له قانون التصفية وان تنشر هذه المقالة في أول عدد يصدر من الجريدة الرسمية وكان قد بقي له يوم واحد فخاص كتاب الجريدة وحاروا وأرسلوا الى صاحب الترجمة من أحضره من الازهر وكلفوه كتابة المقالة فكتبها في مجلسه ونشرت فلما قرأها رياض باشا أعجب بها أشد الاعجاب وسأل عن كاتبها فقيل له هو فلان فزاد عجبه أن وجد في الازهر شاباً واقفاً على تاريخ المالية في مصر عارفاً بجميع شؤونها قادراً على بيان ذلك والافصاح عنه . وفي أواخر هذه السنة طلبه رياض باشا وسأله عن رأيه في اصلاح الجريدة فبين له رأيه في تقرير ضاف فأمر بأن تؤلف لجنة للنظر في التقرير من وكيل الداخلية ومدير المطبوعات وكاتب التقرير وان توضع لائحة لقلم المطبوعات وتحرير الجريدة فكان ذلك وعين الفقيد رئيساً لقلم تحرير الجريدة الرسمية العربية فاختار لها من المحررين المهرة الشيخ عبد الكريم سلمان والشيخ سعد زغلول (هو سعد باشا زغلول المستشار بمحكمة الاستئناف لهذا العهد) والشيخ سيد وفا (رحمه الله) وهم ممن كانوا يحضرون دروسه ودروس السيد جمال الدين ويرعوا في الكتابة معه على يد السيد . ثم ماذا كان من شأنه ؟ كان ما لم يكن يخطر على قلب بشر وهو أن رئيس التحرير للجريدة الرسمية صار مهيمناً على الحكومة والامة ينتقد الاعمال والاقوال ، وينتقل بالناس من حال الى حال ،

وضع لائحة أوقانونا لقلم المطبوعات أجازه وأنفذه رياض باشا فكان

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

من أحكامه أن جميع ادارات الحكومة ومصالحها ومجالسها في العاصمة وغيرها ملزمة بأن تكتب الى ادارة المطبوعات تخبرها بما عملت فأتمت وما شرعت فيه وكذلك المحاكم ترسل اليها نتائج أحكامها ، وان لادارة المطبوعات الحق في انتقاد كل ما تراه منتقدا من الاعمال ، وأن لها حق المراقبة على الجرائد الوطنية والاجنبية التي تصدر في القطر المصري وان تبحث عن حقيقة ما تقوله في رجال الحكومة وأعمالها وعلى الحكومة مساعدتها على ذلك بمعنى أنه اذا نشر في بعض الجرائد ما ترتاب ادارة المطبوعات فيه فإن لها ان تسأل المصلحة أو الادارة التي يسند اليها ذلك عن الحقيقة بواسطة نظارة الداخلية ان لم يكن ما نشر مسندا الى النظارة والاسألتها هي مباشرة فان كان حقا ما نشر في الجريدة وجب على الحكومة مؤاخذة من نسب اليه الذنب وذكر ذلك في الجريدة الرسمية وان كان كذبا طولب مدير الجريدة باثباته والا انذر واذا تكرر إنذار جريدة ثلاث مرات يمنع إصدارها ألبتة أو الى الأجل الذي تراه الادارة . وان من حق رئيس تحرير الجريدة الرسمية أن يجعل فيها قسما غير رسمي ينشر فيه لنفسه ولغيره ما يراه نافعا من المقالات الادبية (ويدخل في الادبية الاجتماعية والاقتصادية وما أشبه ذلك) وقد أجاز هذا القانون وانتدب رياض باشا لما له من العناية بالاصلاح ولثقته بكفاءة صاحب الترجمة وغيرته وإخلاصه في الخدمة العامة وإن في هذا العبرة لأولي الالباب ـ صاحب عمامة أزهرية يدخل في حكومة مطلقة بعيدة في أعمالها عن رجال العلم والدين فيشرف من نافذة غرفة تحرير الجريدة على نظارات الحكومة ومجالسها ومحاكمها ومصالحها فيصلح لهم ما يكتبون ، ويرشدهم الى اصلاح العمل فيما يعملون ، ثم يشرف من نافذة اخرى على الامة فيقوم من اخلاقها ،

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ويصلح مافسد من عاداتها، بالوعظ الصحيح ، والارشاد الحقيقي ،ويطل من نافذة ثالثة على الجرائد العربية فيعلمها حسن التحرير ويربيها على الصدق في القول ويجعل للصادق منها سلطانا نصيرا ، وتأثيرا مأثورا، يالها من عمامة شرفت برأس صاحبها حتى حسدتها الطرابيش ، وهابتها التيجان والبرانيط، ونذكرهنا على سبيل الفكاهة ان بعض الكبراء رغبوا الى الاستاذ الامام في ذلك العهد أن يستبدل الطربوش بالعمامة لان صاحب العمامة لا يرتقي الى مراتب الرؤساء والنظار كصاحب الطربوش فأبى عليهم ذلك فأرادوا الاستعانة عليه برياض باشا فأوهموه انه يميل الى لبس الطربوش ولكنه لا يلبسه الا بأمره فسأله فظهر له انه لا يرغب في ترك زيه وأنه اذا ألزمه بذلك إلزاما فانه يمتثل مادام في عمل الحكومة فاذا خرج من عمله عاد الى عمامته فقال رياض باشا كلا اني لا أرضى لك الطربوش لانني أحب أن يعلم الناس انه يوجد تحت العمائم من العقول والافهام مثل مايوجد تحت الطرابيش وغيرها . فلله در رياض باشا وجزاه الله الخير فانه هو الذي أحضر السيد جمال الدين ومكن له في أرض مصر وهو الذي كان السبب في ظهور مواهب الشيخ محمد عبده في أول نشأته حتى انه حكمه في انتقاد نظارة الداخلية وهو أحد العمال المتوسطين فيها

كان من أثر مراقبة ادارة المطبوعات للجرائد ان اجتهد أصحابها في اتقاء المحررين وقد أنذر عامله الله تعالى باحسانه مدير جريدة شهيرة بمنع جريدته اذا لم يختر لها محررا صحيح العبارة في مدة عينها ففعل ذلك ذلك المدير . ولم يكن يأذن بطبع كتاب من الكتب الضارة . وكان من أثر انتقاد كتاب الحكومة أن نبه شأن المجيدين عنهم وفتحت مدارس ليلية

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لتعليم المقصرين وتبرع تغمده الله برحمته بقراءة درس في بعضها . فهذا هو مبدأ النهضة العلمية الحقيقية في مصر فالفضل فيها للسيد جمال الدين والشيخ محمد عبده رحمهما الله تعالى

وأما انتقاد أعمال الحكومة فكان من أسباب تحريها الحق والعدل والاجتهاد في اصلاح كل نظارة وقد عني الفقيد بوشذ بنفسه في انتقاد نظارة المعارف ومثل مساوي التعليم والتربية في مدارسها شر تمثيل فضاق ذرع ناظر المعارف لذلك المهد فلاذ برياض باشا كيا من الجريدة الرسمية فقال له رياض باشا ان كان ما كتب حقا فلا وجه للشكوى منه وان كان باطلا فعليك أن تبين ذلك بالدليل والبرهان وفلان ينشره في الجريدة الرسمية نفسها فانه لا يقصد بما يكتب فيها الا المصلحة فسكت الناظر واجما

عمله في مجلس المعارف الاعلى

اقتنع رياض باشا بما في نظارة المعارف من الخلل وعلم ان مايكتب في الجريدة الرسمية حق فذاكر الفقيد في ذلك وفي وسائل تلافيه فعرض عليه ان يكون للمعارف مجلس أعلى يكون له الحكم الفصل في ادارة المعارف العمومية ويكون الناظر منفذا لما يقرره فانفذ ذلك رياض باشا وجعل صاحب الترجمة عضوا في هذا المجلس فكان له فيه الاقتراحات النافعة ولولا كثرة ماجعل فيه من الاعضاء الاجانب الذين كانوا يعارضون المشروعات النافعة للبلاد ثم حدوث الثورة لارتقت معارف البلاد في ذلك العهد ارتقاء عظيما . صدر الامر العالي بتشكيل هذا المجلس في ٢٨ ربيع الآخر سنة ١٢٩٨ وقد تألفت منه لجنة للنظر في إصلاح طرق التعليم والتربية في جميع المدارس وكان الفقيد الكاتب العربي لجلساتها وكان

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

له فيها الآراء الصحيحة والحجج القيمة على ما يطلب من الاصلاح

اذكر من اقتراحه شيئا سمعته ولا ادعي انني أحطت به كل الاحاطة وهو انه اقترح مرة على المجلس ان يطلب من الحكومة مبلغا عظيما من المال يوزع على المدارس الاجنبية مكافأة لها على خدمة العلم ونشره في البلاد فهش الاعضاء الاوربيون لهذا الاقتراح وعارض فيه بعض الاعضاء الوطنيين ووافق الآخرون الذين عرفوا ما يرمي اليه المقترح فقرر بأكثر الآراء . ثم انه اقترح في جلسة أخرى أن يقرر المجلس وجوب جعل المدارس الاجنبية تحت مراقبة نظارة المعارف لينظر مفتشو النظارة في نظام التعليم فيها فهش الاعضاء الوطنيون لهذا الاقتراح وعارض فيه الاجانب فأقام عليهم الحجة بأن جميع الدول الأوربية تراقب جميع المدارس التي تأخذ منها إعانة وتفتش مدارسها اذ يجب على الحكومة أن تعلم انها لا تضيع دراهمها بل تنفقها فيما ينفع بلادها . فقال بعضهم ان هذا قول حق وانما نعارض الآن في هذا الاقتراح لاننا نعلم أن المعارف في مصر منحطة وانما اجتمعنا لترقيتها وأرباب المدارس الاجنبية مرتقون في العلوم والمعارف ولا يصلح السافل للاشراف على من هو أعلى منه ولا المنحط للحكم على المرتقي . فقال الفقيد رحمه الله تعالى كان يصح هذا الدفاع لو لم تكن أنت ورفاقك من أعضاء مجلس المعارف المصري فاذا كان الطلب في نفسه حقا وعدلا فلا يصح أن يرفض لان المعارف السومية لم ترتق في البلاد المصرية لان عدم ارتقاء المعارف وانتظام المدارس لا ينافي وجود أفراد من الموظفين في النظارة من الاوربيين أو المصريين المتعلمين في مدارس أوربا العالية يصلحون لتفتيش المدارس الاجنبية : فنهضت حجته وتقرر اقتراحه .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وانها لأمنية يتلحف على ذكرها السلطان والامير ، ويسيل لتوهمها لعاب الناظر والوزير ، ولكن نقف دونها الآمال حسرى ، وتنحني أمامها العقول حيرى ، وتكبو في غاياتها جياد السياسة ، ويصغر عن الطمع فيها أهل الرياسة ، ثم تسمو اليها تلك الهمة ، وتستنزلها من أعلى القمة ، ولولا الفتنة العرابية لجعل لنا ذلك المضو أو الكاتب ، سيطرة على مدارس الاجانب ، على ما كان لهم في ذلك الزمان ، من النفوذ والسلطان ، فكيف لو كان ذا منصب أعلى ، ونفوذ أقوى ،

(دعوته نظارة الاوقاف الى الاصلاح)

كان لنظارة الأوقاف من حفظ إرشاده نفعنا الله بعلومه وآثاره نحو ما كان لسائر النظارات ومصالح الحكومة وكان من تأثير إخلاصه أن عزمت هذه النظارة يومئذ على عمل جليل وهو أن تصل دار الكتب المصرية (الكتبخانه) ومدرسة دار العلوم بالازهر وتوسع دائرة المدرسة بحيث تدرس فيها جميع العلوم ويبلغ عدد طلابها ٥٠٠ طالب ويكون المتخرجون فيها هم المقدمين في أعمال الحكومة ولو تم هذا لكانت الاوقاف ينبوع الحياة لهذه البلاد . ولكن حال دون هذا ودون ما كانت الحكومة شرعت فيه من الاصلاح الاداري والقضائي والعسكري تلك الفتنة المشؤمة

الثورة العرابية

علم مما تقدم ان البلاد المصرية كانت في أواخر إمارة إسماعيل باشا في ظلمات بحر من الظلم لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض ـ ظلمة الجور والظلم وظلمة الفقر والفاقة وظلمة الشرور وفساد الاخلاق والآداب وظلمة تحكم الأجانب وسيطرتهم

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

على الحكومة بحجة المراقبة المالية لمالهم من الديون على اسماعيل باشا وسلطتهم على الرعية التي أغرقها في الاستدانة منهم كثرة الضرائب والجزى، وكثرة الضرب وسوء الجزاء . وكان يظهر من غمرات هذه الظلمات بصيص من النور في مواضع مختلفة لمعت جذوة منه في الازهر فنفخ الشيخ عليش نفخة أخمدتها ولكنها ما أطفأتها ثم كان هذا النور يظهر في معاهد خاصة فتمشو اليه الابصار، ويسير في ضوءه من سار ، حتى أشرق وتلألأ في ادارة المطبوعات، وانتشر نوره في سائر الجهات، وكان ما كان من أخذ الحكومة والناس بوسائل الاصلاح ومقاصده فرحين مستبشرين بأميرهم الجديد (توفيق باشا) لفتته عن أموالهم ، ورغبته في إصلاح حالهم ، وبوزيرهم العامل المخلص (رياض باشا) واذا بناجم الفتنة قد نجم ، وطائر الشر قد وقع ، إذ هب ضباط الجيش من المصريين يطالبون بحقوقهم ، وأيديهم على مقابض سيوفهم ، وتلك هي مايسمونه بالثورة العرابية

لايهمنا في هذا المقام خبر هذه الثورة ولا تاريخها وانما يهمنا أن نبين في تاريخ أستاذنا انه كان كارها لها منددا بزعمائها وهو بينهم لانه كان يعلم انها تحبط عمله الذي مضى فيه ، وكل إصلاح تعمله الحكومة أو تنويه ، وانها تمهد للأجانب سبيل الاستيلاء على البلاد بل كان هو واستاذه يتوقان ذلك من سيرة اسماعيل باشا وقد صرح السيد بذلك في خطبه وفي بعض ما كتب وطبع لذلك العهد وحاول أن يحول دون ما يخشى ويتوقع بالسعي في الاصلاح فليس مانقوله عن أستاذنا من أنه كان لايجهل خطر الثورة بالحدث والرجم بالغيب ، بل هو قول مؤيد بالدلائل وثابت بالرواية الصحيحة عنه وعن الصادقين من العارفين بما كان .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

كان يعتمد على زعماء الثورة بالقول خطابة وجدالا في اندية بهم وسمارهم وبالكتابة في الجريدة الرسمية حتى أرسل اليه عرابي مرة من يهدده ويقول انك أهنت الشرف العسكري بما كتبت عن الجيش ورؤسائه . أرسل اليه ضابطين الى قلم المطبوعات من الداخلية فطردهما وهددهما بالضرب اذا هما لم يخرجا . وكان عرابي وأعوانه ينفضون من المجلس يدخل فيه

زار مرة طلبه باشا في أيام عيد الفطر فاذا بعرابي وأعوانه جلوس يتكلمون في الاستبداد والحرية والحكومة المطلقة والحكومة النيابية الدستورية واتفقوا على أن الأمن على الارواح والاموال ، وصمود الامة في مراقي الكمال ، من آثار الحكومة المقيدة بلا جدال ، وان هذا التحويل قد آن في مصر أوانه ، وأدركها إبانه ، فعارض الاستاذ في ذلك وقال ان أول مايجب ان يبدأ به التربية والتعليم لتكوين رجال يقومون بأعمال الحكومة النيابية على بصيرة مؤيدة بالعزيمة ، وحمل الحكومة على العدل والاصلاح ومنه تمويدها الاهالي على البحث في المصالح العامة واستشارتها إياهم في الامر بمجالس خاصة تنشأ في المديريات والمحافظات ، وليس من الحكمة أن تعطى الرعية مالم تستعد له فذلك بمثابة تمكين القاصر من التصرف بماله قبل بلوغ سن الرشد وكمال التربية المؤهلة والمعدة للتصرف المفيد. فطفق عرابي يجادله هو وأحد أساتذة المدرسة الحربية وكان مما احتج به الفقيد عليهما أن الأمة لو كانت مستعدة لمشاركة الحكومة في ادارة شؤونها لما كان لطلب ذلك بالقوة العسكرية معنى فيطالب به رؤساء العسكرية الآن غير مشروع لانه ليس تصوير الاستعداد الأمة ومطلبها ويخشى ان يجر هذا الشغب على البلاد احتلالا أجنبيا يسجل على مسببه اللعنة الى يوم القيامة ،

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عند ذلك أبدى المجادل نواجذه لغير تبسم وقال أرجو أن لا استحق هذه اللعنة وليس الجند هو يطلب مجلس النواب ولكنه مؤيد لطلب أعيان البلاد ووجهائها ثم أشر الى الاستاذ ان سلطان باشا جمع الاعيان لهذا الطلب. وقد كتبنا في ص ٥١٢ من مجلد المنار الرابع ردا على صحافي عرض بأن الاستاذ الامام كان من أركان الثورة العرابية نذكره هنا وهو

« عرض هذا الانفجاني المتذمح بذكر الفتنة العرابية وياليته كان يعرف حقيقة الفتنة العرابية ويعرف المتهورين فيها والناصحين لهم بالاعتدال فهو لا يعرف ولا يحب أن يعرف واذا أحب فليسأل العارفين ، وليراجع كتابة الكاتبين ، وعندذلك تظهر له مزية من عرض به ان كان من المنصفين ، يظهر له أن هذا الرجل الكبير العقل البعيد الرأي كان ينتقد أعمال عرابي وتهوره في جريدة الوقائع الرسمية في القسم الادبي منها على حين ترتعد فرائص قصر الخديوية من عرابي وحين يرى هذا المنتقد الشجاع ان رئيس النظار ينزل من ديوانه بأمر عرابي مكرها ويسمع من أتباعه ما يكره . وتظهر له تلك الخطبة التي خطبها هذا الرجل العظيم في زعماء الثورة العرابية عند ما ألزموه بحضور مجتمعهم وان يقوم فيهم خطيبا . ماذا كان موضوع خطبته ؟

« كان موضوعها بيان تاريخي بأن المعهود في سير الامم ومن الاجتماع أن القيام على الحكومات الاستبدادية وتقييد سلطتها وإلزامها بالشورى وبالمساواة بين الرعية انما يكون من الطبقات الوسطى والدنيا اذا فشا فيهم التعليم الصحيح والتربية النافعة وصار لهم رأي عام ، وانه لم يمهد في أمة من أمم الارض ان الخواص والاغنياء ورجال الحكومة يطلبون مساواة أنفسهم

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

بسائر الناس وإزالة امتيازاتهم واستئثارهم بالجاه والوظائف ومشاركة الطبقات الدنيا لهم في ذلك فكيف حصل في هذه المرة ومن أهل هذا المجتمع ؟ (قل) فهل تغيرت سنة الله في الخلق وانقلب سير العالم الانساني أم بلغت الفضيلة فيكم حدا لم يبلغ اليه أحد من العالمين حتى رضيتم واخترتم عن روية وبصيرة أن تشاركوا سائر أمتكم في جاهكم ومجدكم وتساووا الصعاليك حبا بالعدالة والانسانية ؟ أم تسيرون الى حيث لا تدرون ، وتعملون مالا تعلمون ؟ : وأمثال هذا الكلام الذي فهمه بعضهم فطفقوا ينفضون رءوسهم وعلا على أفهام الاخرين

«هذا ماقاله الشيخ محمد عبده في أعظم مجتمع لرؤساء العرابيين ولو كانوا يعقلون لرجعوا به الى رشدهم ولكن الامة لم تكن استعدت لفهم ارشاد هذا الحكيم ولما تستعد الى الآن . ولهذا الاستاذ ان يتمثل بقول ابن الفارض رحمه الله تعالى

ونهج سبيلي واضح لمن اهتدى ولكنها الاهواء عمت فأعمت

هذا ما كتبناه منذ أربع سنوات كاملة . ولا حاجة الى كثرة الشواهد والوقائع في هذه السيرة المختصرة

ولا يلتبس على القارىء معارضة الاستاذ الامام للعرابيين في مشروع مجلس النواب وتقييد السلطة مع أنه كان الداعي الثاني الى ذلك بعد أستاذه وأول من تلقى ذلك عنه فانه كان يحاول أن يكون ذلك برضى الامير وحكومته لا بالخروج عليه وأن يكون في البداية من قبيل التمرين والتمويد مقرونا بالتربية والتعليم الى أن تبلغ النابتة الجديدة أشدها وتصل من طريق الحكمة الى رشدها وقد رأيت كيف كان التوسل منه ، فيما

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

رويناه لك عنه، وهو لم يفارق القوم المطالبين بالصلاح عند مهب الفتنة، ويلجأ الى قصر الامارة أو يتفيأ ظلال الدولة، لانه في فكره وسط بين الطرفين، وفي عمله بين المصلحتين، وقد قال لعرابي مرارا كثيرة عليك بالهدوء والسكينة وأنا أضمن لك أكثر مما تطلب في بضع سنين ونهاه بعد ذلك عن محاربة الانكليز

انتهت الثورة بالاحتلال الانكليزي وقبض على زعمائها وألقوا في غيابة السجن ليحاكموا فيقتلوا تقتيلا . وجعل القيد منهم لامر ما وصدر الامر بأن تكون محاكمتهم بالقانون الانكليزي وعين لهم محام انكليزي جاءهم فسمع منهم وكلفهم ان يكتبوا دفاعهم بأيديهم كل يكتب عن نفسه، ولا يطمن في غيره، فلم يرق كتابة أحدما تقوم به الحجة، وتقعد به التهمة، ويدل على الغوص في أعماق الحوادث، والاحاطة بما لها من الأسباب والنتائج . الا ما كتبه وما قاله فقيدنا بالامس، وقد زاد المحامي على بيان ذلك ان اشعره باخفايا، وأطلعه على مافي زوايا القصر من الخبايا، كقوله ان الحاشية خاطبت محافظ الاسكندرية بلسان البرق بكذا في يوم كذا وعدد كذا بأن يفعل كيت وكيت . وأعطاه من المستندات ما يثلب وجه المسألة، ولا ترضى إظهاره السياسة، وسنشرح ذلك في تاريخ القيد بالتفصيل . حكم على عرابي ورفاقه المعروفين بالنفي الابدي وعلى صاحب الترجمة بالنفي ثلاث سنين وثلاثة أشهر . وقد كان النفي بلاء وشقاء على كل المنفيين حاشا الامام فانه كان رحمة له ونعمة عليه ومزيدا في كمال علمه وتربيته وسببا لنشر علمه في بلاد كثيرة . ذلك انه كان من أهل الاخلاص والتقوى فجعل الله تعالى له من كل ضيق فرجا ومخرجا بل بدل له النقمة نعمة والسيئة حسنة فكان مبدأ حياة جديدة له نبينها فيما يلي هذا

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الدين في نظر العقل الصحيح

﴿ المقالة الثانية ـ لصاحب الامضاء ﴾

النبوة

النبوة إصلاح في الارض من قبل الله تعالى على يد شخص يصطفيه من بين خلقه ، بمعنى أنها من قبل الله أنها ليست مستمدة من معلومات من جاور هؤلاء المصطفين الاخيار من الاقوام ، بل هي أرقى بكثير مما عليه الناس وما وصلوا إليه ، وفائدتها تقدم العالم بسرعة إلى الامام وإصلاح ضمائر الخلق وما تكنه صدورهم بسبب ما توجبه من الايمان باليوم الآخر وما فيه من عقاب أو ثواب وبذلك تستقيم أمورهم في السر والعلن ذكرنا الايمان باليوم الآخر وحده ولم نذكر الايمان بالله مع أنهما مرتبطان أتم ارتباط لأن الاول لا سبيل للعقل أن يجزم به بدون النبوة بخلاف الثاني فالعقل وحده كاف لمعرفته ومعرفة صفاته كما بيناه آنفاً ، إذاً الغرض الاكبر من النبوة حمل الناس على الايمان بذلك اليوم وإصلاح حالهم الدينية والدنيوية إصلاحا لا يصلون إليه بأنفسهم ولو بعد مئات من السنين إن لم نقل آلاف منها ، هذا ولما كان محمد عليه السلام المثال الاكبر للانبياء وتاريخه أقرب عهداً وأصح سنداً رأيت أن أتكلم على حياته بما يقتضيه المقام ، إيضاحا لما أجملته فيما مر من الكلام ، وهذا يستلزم ذكر أحوال العالم في ذلك الوقت ثم أحواله عليه السلام وما أتى به من الاصلاح في الارض ولذا أبدأ الآن بوصف حالة العالم في عصره فأقول

كثرت المشاغبات في الدين ، وطمس نور الحق بين العالمين ، تشعبت الآراء ، وتعددت الاهواء ، وعبد كل ما شاء الشيطان من الاباطيل ، عم السجود للاوثان ، وعبدت الصور والصلبان ، واعتقد الناس الالوهية في التماثيل ، خاط الخلق في شأن اللاهوت ، وتوهموا ظهوره في الناسوت ، فتخذ البشر آلهة من دون واجب الوجود ، سهل على الناس اعتقاد السلطة في بعض الافراد ، وظنوا ان بيدهم الاشقاء والاسعاد ، فبايوا مقامهم ، واعلوا شأنهم ، فطغى اولئك وبغوا ، وافتروا ما شاءوا من الاحكام ، وقالوا لما تصف السنتهم الكذب هذا حلال وهذا حرام ، اصبح الناس عبيداً اذلاء ، في جهالة عمياء ،

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

اشتغل الرؤساء بالمطامع الشخصية، وتفانوا في الحصول على مقاصدهم البهيمية، واختلقوا الفروض من المسائل الدينية ذريعة للمشاجرات والمماحكات. فتعددت البدع وكثرت الفرق وظهرت مذاهب الاباحيين والدهريين، اثار كل رئيس من تحت يده من المرءوسين، واشهروا الحرب على الآخرين فأريقت دماء الملايين.

هذا كان حال الامم في كل بقعة من الارض وفي بلاد العرب ادهى وامر، عم الفساد وزاد العناد وزال العلم وحل الجهل وفسدت الاخلاق في سائر الآفاق

ليس ماذكر تخيلات شعرية، ولا افتكار وهمية، بل هي حقائق تاريخيه، اتفق عليها اهل العلم، ولم يشذ عنهم ذو فهم.

ظهر في هذا الوسط الجاهل والظلام الحالك، الذي يضل فيه كل سالك، محمد العربي النبي الامي، ونشأ يتيما فقيرا لأب يهذبه ويربيه ولا معلم يرشده ويهديه

قد يزعم بعض المجادلين انه تعلم القراءة والكتابة ليدفع بذلك ماسيلقى على سمعه من قوة البرهان ولكنه وهم نزيله بما يأتي من الدلائل الواضحة:

(١) إن الجمهور الاعظم من امته كان اميا إلا نفراً قليلا فاذا أضفنا إلى ذلك يتمه وفقره واميته فلا نجد أي حامل يحمله على تعلم القراءة والكتابة إذ أولى له أن يسعى على عيشه من أن يصرف وقته في الحصول على شيء لا يعرفه الا القليل ممن جاوره

(٢) تعلم القراءة والكتابة يحتاج إلى زمن ليس بقصير وخصوصاً في بلاد ليس فيها دور للعلم ولا كتب ولا مدرسون فلو سعى في تعلمهما لوجد مشقة عظيمة ولما أمكنه إخفاء أمره إذ لابد أن يشاهده الناس ولو مرة واحدة مع أنه كان يجاهر بأميته على رؤوس الاشهاد ولم يوجد من يعارضه (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون)

(٣) لم يعهد عنه أنه كان يعاشر أحداً ممن اشتهر بمعرفة القراءة والكتابة قبل نبوته

(٤) لو كان أحد من الناس يعلمه لاضطر النبي إلى تقديمه على أصحابه ولأظهر له احتراماً زائداً ولفاه المعلم بذلك لبعض الناس مع أنه لم يحصل شيء من ذلك مطلقاً

(٥) لم يشاهد أنه في منزله أو خارجه قبل النبوة أو بعدها كان يستعمل قرطاساً أو قلماً في تأليف شيء ما أو تدوينه فلو فرضنا أنه لم يشاهد وهو يتعلم فيبعد جداً أن

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

لا يشاهد وهو يستعمل القراءة والكتابة في شؤونه الخاصة.

(٦) لو كان ابتدأ بتعلم القراءة والكتابة لأقصد دعوى النبوة لأظهر افتخاره بذلك وجاهر به ولو كان لقصد دعوى النبوة فمن البعيد جداً أن يدبر حيلة كهذه وخصوصاً إذا أضفناها الى غيرها مما يسميه أعداؤه حيلا فانها تغيب عن أذهان الفلاسفة والسياسيين لانهم اذا دبروا عدة حيل يظهر أمرهم ولو في إحداها على مر الازمان فكيف يتأتى لواحد مثل محمد في أول نشأته أن يدبر كل ذلك بنفسه ويكتمه حتى يصير كهلا ولا يفتضح أمره مرة واحدة إن ذلك لبهتان عظيم

والخلاصة أن حاله ووسطه الذي تربى فيه كان اليتم والفقر والجهل والامية والاوهام والضلال والوثنية، وقد احتاط به فساد الاخلاق من جميع الجهات، والتف حوله عشيرته الفارقة في بحر من الخرافات والترهات، فكيف كان تأثير ذلك في نفسه؟؟ لم يكن له ذلك التأثير المعهود بل نشأ منشأ يخالف ما عليه أهله وقومه. بغضت اليه الوثنية في مبدأ أمره. فلم يعرف عنه أنه سجد لصنم قط أو اشتغل بمعبود مع أهله. كانوا يشربون حوله الخمور، ويقمرون في الشهوات والفجور، وهو بعيد عنهم منكر عليهم، كانوا يشتغلون بالتافه من الامور ويثيرون الحروب لمسائل واهية ولم يكن هو منهم، كانوا يقومون ويقعدون، ويتفانون ويقتتلون لقصيدة أو بيت شعر وهو لا يحفل بذلك ولا يجاريهم عليه. ماذا كانت حاله اذاً؟؟ لجد والاستقامة دأبه، والصدق والامانة طبعه، حتى عرف بين أهل مكة بالامين وهو في ريعان شبابه. ينهمك الشبان عادة في الشهوات ولو كانوا معلمين مهذبين ولكنه هو يتزوج العوان ويبقى معها الى ما بعد الاربعين حتى حين وفاتها ولا ينظر الى سواها ويعيش معها بكل طهارة وعفة فلم يسمع عنه أنه ارتكب منكراً في زمن شبابه أو علق بحب فتاة أو مال الى عشقها مع أن قومه كانوا غارقين في هذه البحار وقصائدهم تشهد بذلك. ماذا كان شغله اذاً؟؟ كان شغله رعي الاغنام ثم التجارة ثم التعبد في الخلاء والتحنث بمناجاة الله تعالى

قام محمد بلوغه الاربعين يدعو الخلق الى عبادة الحق وقرر ان للعالم إلهاً واحداً بريئاً من كل ما ينسبونه اليه مما لا يليق به وأثبت ذلك بالحجج البينات. أمر الناس باستعمال الفكر والعقل في كل شيء ونهى عن التقليد وحض على النظر في الموجودات. أطلق للناس الحرية الصحيحة

www.alukah.net شبكة الألوكة

وحرم عليهم الخضوع لرئيس في الدين اولأي احد سوى رب العالمين ومنعهم من الالتجاء الا اليه مباشرة وامرهم بالاستعانة به وحده، اعطى الروح والبدن ما يطلبانه بشرط ان لا يضر هما، ولم يحث على المبالغة في الزهد ولا الرهبانية بل امر بالسعي والعمل وتصريف الاعضاء فيما خلقت لاجله مع مراعاة ان لا يضر ذلك بالمرء او بغيره، أباح الطيبات وحرم الخبائث، وامر بالعدل والمساواة ومسالمة المخالفين في الدين ومعاملتهم بالتي هي احسن والتوفيق بيننا وبينهم ونهى عن الاكراه في الدين واوجب تأمين الراغبين في النظر فيه ولو وقت الحرب (وان احد من المشركين استجارك فاجره حتى يسمع كلام الله ثم ابلغه مأمنه ذلك بانهم قوم لا يعلمون) الى غير ذلك، لم تهتد اليه الناس في الغرب الا بعد ان وصل اليهم شعاع من نور الاسلام في الشرق، فارجع البصر الى تاريخ اوروبا قبل الاصلاح الديني بلوثر وقبل الاصلاح السياسي بالثورة الفرنساوية لتعرف ما كانوا عليه، اتى مع ذلك بجميع الاخلاق الفاضلة المعتدلة والعبادات الصالحة والمعاملات الكاملة والمبادىء السليمة والسياسات القويمة وغيرها مما كان السبب في اصلاح امر الانسان وتحريره من العبودية واتقاذ العقل من الاسر وردده الى مملكته ليحكم فيها بالقسط فنهض الشرق نهضة سريعة عالية لم يعهد لها مثيل في التاريخ ثم امتدت الى الغرب

فهذه هي آثار ذلك الأمي وهذه هي اعماله فبأي آلاء ربكما تكذبان؟

زعم بعضهم بعد أن سلم بأميته أنه لا بد أن يكون تلقى ما أتى به من أحد الناس بالمشافهة فنجيب بأن ذلك التلقي الموهوم إما أن يكون حصل قبل النبوة أو بعدها

فان كان قبل النبوة فاما ان يكون حصل ذلك في بلاده أو في غيرها أما في غيرها فهو لم يسافر إلا إلى بلاد الشام وذلك مرتين الاولى مع عمه أبي طالب قبل بلوغه رشده والثانية في سن الخامسة والعشرين مع غلام خديجة وفي كلتيهما لم يكن منفرداً ولم يشاهده أحد من التجار المسافرين معه يتلقى العلم عن أحد ولم يغب عن قومه الا مدة التجارة والا لو غاب عنهم بضع سنين لقالوا له اين كنت هذا مدة غيابك عنا وهم لم يفوهوا بمثل هذا مع أنهم كانوا يحاولون أن يلصقوا به هذه الشبهة وهي التعلم من الناس وأيضاً فأي حامل يحمل هذا الفقير الذي نشأ هذا المنشأ الذي بيناه ولم يوجد من ينبهه ويرشد فكره لفضيلة العلم حتى يترك ما نشأ به وهو في تلك البلاد

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الاجنبية وما به إرضاء خديجة التي بعثة إليها ويجهد نفسه في البحث عن عالم ليس من امته ولم يكن على عقائدهم ويرضخ له حتى يبحث في قلبه كل هذه التعليمات ويسلم له فيما يخالف معتقد آبائه وأجداده . وان زعم انه حصل ذلك في بلاده فهو غير ممكن لاسباب :

(١) انه كان يشاهد يفعل ذلك ولو مرة واحدة

(٢) ان المعلم له إما انه كان من الوثنيين وهذا لا يمكن أن يعلمه ما في التوراة والانجيل وغيرهما من عقائد الموحدين واما انه كان من اليهود وهذا لا يمكن أن يعلمه أخبار المسيح وأمه والاقرار لهما بالفضل والنزاهة واما انه كان من النصارى وهذا لا يمكنه أن ينكر لاهوت المسيح ولا التثليث ولا الصلب ولا أن يرمي النصارى بالتحريف في كتبهم ولا غير ذلك مما يوجد في القرآن من الانكار عليهم واما انه كان من المبتدعين ومثل هذا أولى أن يشتهر بين الناس بنفسه أو تعرف له علاقة في التاريخ بمحمد عليه السلام تؤهله أن يتعلم منه

(٣) أي حامل يحمل هذا المعلم على اجهاد نفسه وصرف وقته في تعليم هذا الغريب الامي ولم لم يدع الناس الى هذه الاشياء بنفسه او يختار احداً من اشتهر بشعر او بخطابة أو شيء من العلم أو كان له جاه أو أعوان أو مال او غير ذلك مما يكسب المهابة في قلوب الناس

(٤) انه من الصعب جداً ان يقدر احد من الناس ان يهذب هذا الامي كل هذا التهذيب وان يخرجه من عقائد آبائه واجداده ويدخل في ذهنه مسائل النبوة والوحي والتنزيه والتوحيد ويجعله يعتقد ذلك اعتقاداً يقينياً الا اذا كان هذا المعلم مقتدراً عالماً حكيماً ومثل هذا لم يعرف له ذكر في بلاد العرب ولا فيما جاورها فكيف لم يشتهر بالعلم والفضل وأي مؤرخ لذلك العهد ذكر كلمة عن أحد مثل هذا متمسكاً بما يوجد في القرآن من العقائد والعبادات والمعاملات والاخلاق والمبادىء وغيرها

(٥) لم لم يسر هذا المعلم الى احدا بأنه يعلم محمدا ويهذبه وما الذي حمله على اخفاء هذه المسألة وكتمها هذا الكتمان المطلق

(٦) لم لم يشاهد محمدا يجتمع أحدا قبل نبوته اكثر من غيره او يلوذ به

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ويلازمه كما هو شأن التلميذ مع معلمه

(٧) اي شيء ألزمه الصبر اربعين سنة ولم يجعله يسارع الى دعوى النبوة ولم لم يبادر الى سرد القصص التي تعلمها مرة واحدة. وكذلك الاحكام والعقائد وغيرها خوفاً من الذهاب من الذاكرة والنسيان وهو الامي الذي لا يمكنه ان يشتغل مذاكرة لشيء مطلقا خوفا من ان يطلع عليها احد وهي معه. شأن الذي يريد ان يدعي شيئاً مثل هذا ان يظهر عليه عدة محاولات تدل على ما تطويه سريرته ثم يجرأ فيزداد شيئاً فشيئا لا ان يسكت اربعين سنة ثم يندفع بدعواه مرة واحدة بعزيمة واحدة قوتها في الاول كقوتها في الآخر

(٨) كيف ان هذه الفكرة لم تأخذ بلبه ومشاعره فتجعله مشتغلا بها طول السنة وكيف يتناساها إحدى عشر شهرا ويشتغل بها شهر رمضان فقط من كل سنة فيستعد فيه لما سيدعيه كما يزعمه اولو الاهواء في عزلته السنوية. عادة المفترين ان تأخذ مثل هذه النيات بحواسهم وعقولهم حتى يظهر للناس انهم دائما في اشتغال بال ولكن النبي ما كان يشغله شيء عن شيء والا لانهك الفكر بدنه وصار سقيما وكلت قواه العقلية من كثرة الحيل وتعدد الصعوبات التي كان يلاقيها فتضعف عن ان تدبر كل ما كان يدبره لولا الارشادات الالهية والالهامات الربانية. وكيف علم انه لن ينقضي اجله حتى يتم القرآن في آخر سنة من حياته ويأمن على نفسه فيأتي به نجوماً نجوماً

وان كان التعلم حصل بعد ظهوره بالنبوة

(١) فكيف ابتدأ دعواه على جهله وأي منبه قام بفكره حتى حمله على ذلك وكيف ضمن أنه يجد من يعلمه

(٢) لم لم يشاهد مرة يلجأ الى أحد الناس ليتعلم منه

(٣) لم لم يقدم هذا المعلم ويفضله على أصحابه أو يوصي له بالخلافة ولم بقي معلمه مرؤوسا له ولم يكن رئيساً عليه (راجع أيضاً الوجه السابق)

(٤) لم لم يوجد بين أصحابه من كان يأنف من أن يتلقى العلم عنه ويخضع لأمره وينتهي بنهيه فأين كان هذا المعلم حتى ساوى نفسه بأصحابه. هذا ولم يعرف أحد بينهم ممتازا بعلم

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

سوى ما أخذه باقراره جميعاً عن كتاب الله وحديث رسوله فان كان هذا العلم موجوداً في عصر النبوة فلم لم يشتهر قبل دعوى محمد بالعلم والفلسفة ولم أخفى نفسه حتى ادعى محمد النبوة ولم لم يظهر بين العرب حتى تجله وتحترمه احتراماً لمحمد وأي شيء استفاده حتى يكتم كل هذا فيالله من التعصب الذي يعمي ويصم

علمت مما تقدم أنه كان أمياً وأنه لم يتلق العلم عن أحد شفاهياً فكيف أتى بما أتى وكيف حمل ما حمل ؟ شيء آخر في تاريخه وهو أنه لم يجار العرب في الاشتغال بالشعر أو النثر أو الخطابة أو غير ذلك مما كانت تتفنن فيه العرب ولم يشتهر بشيء من ذلك مطلقاً ولم ينقل عنه أنه قال كلاماً في منتهى البلاغة قبل نبوته وكان قليل العناية بمجتمعاتهم وافتخارهم بنثرهم ونظمهم فكيف أتى بهذه البلاغة الخارقة للعادة وكيف أتى بهذا الاسلوب المعجز واخترعه وكيف لم يوجد فرق في البلاغة بين أول ما نزل من القرآن وآخره مع أن العادة ان الانسان يتدرج في الشيء فيكون آخر ما يأتي به أحسن مما ابتدأ بانشائه وكيف يكون الكل معجزاً مع أن المعتاد من البلغاء أن يكون بعض كلامهم في منتهى البلاغة والبعض الآخر ليس كذلك . كيف لم تجد العرب إعجازاً في كلامه الذي ينسبه لنفسه قبل النبوة أو بعدها مع أنه لم يظهر عليه شيء يدل على عنايته بانشاء أحدهما دون الآخر بل كثيراً ما كان يقول أحدهما في عين الظروف التي يقول فيها الآخر بدون تكلف أو تحوير فيما يلقيه من أول وهلة . كيف أمكنه الجزم بأن جميع الناس لن تقدر على الاتيان بكلام مثل القرآن منفردين ومجتمعين ويخبر بذلك قبل وقوعه ويصدق خبره (فان لم تفعلوا ولن تفعلوا) الآية وغيرها فما هذه الحجج الملجمات وما هذه البراهين المفحمات ؟

قام بالدعوة الى الله وحده ولا حول له ولا قوة والناس حواليه . أحباء ما ألفوا أعداء لما دعوا اليه . فسفه آراءهم . ونكس أصنامهم . ولاقى بسبب ذلك منهم ما لاقى مما يثبط الهمم ويذهب بالتزامهم لولا ثبته في أمره وجزمه بالظفر والنجاح . فنجا من جميع الشراك التي كانت تنصب له في الحروب وغيرها وسلم من الدسائس التي كانت تحل له والتربصات لقتله فيلة التي كانت تعقد عليه ووعد أصحابه بالنصر والفتح والتمكين في الارض والخلافة فوقع كل ذلك لهم وصدق في جميع ما أخبر به من المغيبات . فتحققت نبوته وصح اخباره بانتصار الروم على الفرس في السورة المعروفة مع انهم كانوا في حالة

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لا يرجى معها نصر لشدة ضعفهم وقوة عدوهم وهو لم يكن من السياسيين ولا المطلعين على مواقع البلاد واحوال الامم وتاريخها فكيف يتأتى له الحكم بشيء مثل هذا ويعرض نفسه للتكذيب والخذلان مع ان المسألة ليست عليهم كثيراً حتى يبت الحكم فيها فلولا ثقته بالوحي لما تجرأ على القول بأنهم سيغلبون في بضع سنين وعرض نفسه للسخرية والتكذيب وهو احرص الناس على عدم افتضاح امره كما يقول اعداؤه (وإذا صحت قراءة من قرأ سيغلبون بالبناء للمجهول اي إن المسلمين تغلبهم ففيها ايضاً الاخبار بالغيب لو لم يقع لظهر كذبه) اجتمعت عليه العرب مرة واحزاباً، واتحدوا على محو ذكره من الوجود انتقاماً، فارسل الله عليهم ريحاً وألقى في قلوبهم الرعب من غير سبب ففروا انهزاماً، وكفى الله المؤمنين القتال، فما كل هذه المصادفات الا صح ما يقول الواهمون الذين يتمحكون بهذه التاويلات الفارغة ويتمسكون بالتعليلات الباردة، سمعت من بعضهم بميدان ادهشه الدليل بان النبي لم يتعلم من واحد مخصوص قولا يريد به تسكين نفسه وتهدئة خاطره وهو انما كان يسمعه النبي ممن حوله من الناس في مسائل الدين سهل عليه الاتيان بما اتى به وانه كان يتصيد معلوماته ممن جاوره من النصارى واليهود باستراق السمع منهم فاقول له مهلا ايها المعجب بتفسيراته المغرور بتعليلاته واستمع لما سأتلو عليك وانت شهيد، ولا تكن ممن عن الحق يحيد؟

انه لم يكن في مكة من أهل الكتاب الا أشخاص يعدون على أصابع اليد الواحدة وكانوا من أجهل الناس وأحطهم مقاماً في الهيئة الاجتماعية وكانوا يحترفون بدني الحرف كخدمة بعض العرب او الاتجار في بعض اشياء حقيرة، وقد نزل في مكة من القرآن ما كان محمد في اشد الحاجة الى من يلقنه اياه فهل يسلم العقل ان علم محمد مستفاد من هؤلاء الاشخاص

هب انه كان يتصيد المسائل من نصارى العرب ويهودها فكيف أمن من الوقوع في خرافاتهم التي يجزم العقل ببطلانها كقصة شمشون وما يتعلق بقوته وشعره ونحو ذلك من الاوهام التي كانت ولا تزال منتشرة بين النصارى واليهود الى اليوم، لم تنزه كلامه عن اضاليلهم في المسألة اللاهوتية كعقائدهم في المسيح والصلب والتثليث ومصارعة الله بعض الانبياء وظهوره بمظهر شخص لم يتروَ فيما فعله فندم بعد ذلك

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

على ماوقع منه كأنه لم يكن يعرف عواقب الامور . اليس من المعهود ان الانسان يقع في بعض غلطات من كان يجعل كلامهم معتمده فيما يعتقد انه صواب فلماذا لم يقع محمد في خطأ واحد من خطأهم

كيف سلم كلامه من الغلطات في المسائل العلمية التي كانت منتشرة بينهم في ذلك الوقت كاعتقادهم ان الشمس وقفت لفلان او رجمت بعض درجات وان الحية لاتأكل إلا التراب مع انها لاتأكل التراب وكالأوهام في شأن جنة عدن وما ذكر معها من الانهار مما لايصدق به الا الجهلة من اهل التحريف الى غير ذلك مما كان ذائعاً بينهم ولا يزال الى الآن . هل يعرف الامي الذي نشأ في وسط الجهل وفي زمن الجهل ماصح من المسائل وما فسد منها حتى انه لايقع في كلامه الا الصحيح مع أن انتشار الخرافات والاقوال الفاسدة كان بحيث اذا كلف فيلسوف بانتقاده واختيار صحيحها لوقع في الوهم والحكم على بعض الصحيح بأنه باطل وعلى كثير من الباطل بأنه صحيح وخصوصاً في ذلك الزمن وفي تلك البلاد العربية التي كان فيها العلم عبارة عن مجموع خرافات لاعجائز اختلطت بشيء لايخلو من الصحة من بعض الوجوه فما بالك بمحمد الامي والرجل العامي .

ايتصور ان هذا الرجل الذي كان يعتقد في اهل الكتاب انهم غاشون ما كرون يحرفون الكلم عن مواضعه ويفترون على الله الكذب ويكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا ايتصور منه وهو يعرف كل هذا عنهم ان يثق بأقوال يسمعها من افواه الجهلة منهم ويزعم بعد ذلك أنها من عند الله مع انه ما كان يثق بقول اعظم عالم من علمائهم بل كان يرميهم بأنهم لايفهمون حقائق ما عندهم من الكتاب وأنهم يختلقون اشياء كثيرة لتضليل عامتهم وغشهم . فكيف يعول النبي الذي لاينكر أحد رجحان عقله على قولهم مع انه شرح للناس مكرهم وكذبهم، وكيف لايخاف ان يكذبوا عليه ويفروه ويوقعوه في الخطأ الذي لايمكنه التخلص منه . وكيف يسلم لاحد منهم مايقوله في دينه مع انه يجوز ان يكون مخطئا ولا أثر لما يقول في الدين لما نشاهد ذلك كثيراً في المسلمين وغيرهم فكم من غلط وقع فيه الكتاب الغربيون اثناء كلامهم عن الاسلام وعن عقائدهم بسبب مايسمعونه من جهلة المسلمين .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

هل يمكن للعامي الأمي اذا سمع خليطاً من قصص بني اسرائيل من افواه آحاد الناس في مجالسهم مشوهة ممزوجة بكثير من الخرافات كما هو شأن العامة في أحاديثهم غير مرتبة على حسب وقوعها وغير مفصلة تفصيلا يزيل ما اشتبه على الافهام بحيث لا يدري صحيحها من كذبها أن يفهم منها حقيقة تاريخهم وعقائدهم ودعوى أنبيائهم ويأتي بعد ذلك بتفاصيل اهم حوادثهم وذكر اعظم رجالهم وما حدث لهم ويشير الى ترتيب أزمنتها والى بعض البلاد التي وقعت فيها والى موقعها الجغرافي كأن يومئ الى موقع البحر الاحمر بالنسبة الى مصر بقوله (فأتبعوهم مشرقين) ويأتي على القصص الطويلة كقصة يوسف وموسى وابراهيم ولوط وغيرهم ويعرف نسبة كل منهم الى الآخر ويرتبها على حسب ترتيبها الطبيعي من غير تقديم او تأخير في حوادثها او يخلط فيها مع ان هذا التاريخ اجنبي عنه وعن قومه ولم يدرسه دراسة تمكنه من ان يكتب احدى حوادثه الكبيرة؟ تصور حالة عامي من عامة المصريين اذا سمع اقوالا متفرقة منشعبة من افواه بعض جهلة الاوروبيين عن تاريخهم فهل يمكن هذا العامي أن يأتينا بشيء عظيم صحيح من تاريخهم مثل ما اتى به القرآن ويسرد علينا آراءهم ومبادئهم ومعتقداتهم ويذكر أممهم ورجالهم ونسبهم وتاريخ حياتهم وما أتوا به من الاصلاح في بلادهم وينبه على وجوه العبرة في كل ما يقص علينا وعلى ارتباط الحوادث بعضها ببعض ولا يذكر إلا الصحيح منها ويترك الاباطيل التي ألحقتها الاوهام بها. قل لي بأبيك هل هذا ممكن؟؟ يزعم البعض أن في القرآن خطأ في هذه المسائل ويأتوننا بأشياء تعد على أصابع اليد الواحدة ويزعمون أنها غلط من غير اعتماد على دليل صحيح يعتد به. فلو كان مصدر القرآن كما يقولون هل كنا نجد فيه هذه الغلطات القليلة (على زعمهم) فقط غير الثابتة أم كنا نجد كل صحيفة ممتلئة بالاوهام والخرافات والخلط في المسائل والخبط من غير اهتداء إلى صحيحها وذلك من غير كثير عناء وتعب بل مجرد مطالعتها كان يضحكنا ويجعلنا نهزأ بها ونتعجب من ترهاتها وخصوصاً في زماننا هذا الذي صار فيه تلامذة مكاتبنا يضحكون من أفكار بعض فلاسفة من سبقنا ويتفكهون بذكرها ولا نحتاج إلى البحث والتنقيب وصرف الوقت في الحصول على هفوة قل أن نجدها في القرآن وإذا وجدناها فانها لا تلبث أن تزول بعد التروي والتأمل والتعمق في البحث. فهل

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

هذا هو ما ننتظره في قول العامي المصري الذي ضربناه لك مثلاً لأم كنا نستلقي على قفانا من الضحك عند سماع بضعة أسطر من كلامه في المسائل الطبيعية والتاريخية والعمرانية والاخلاقية واللاهوتية والشرائع المدنية والعبادات الدينية إذا حاول أن يملي علينا شيئاً من ذلك. استحضر الآن في فكرك ما أتى به القرآن. أليست الشريعة الاسلامية تضارع أعظم الشرائع كالرومانية وغيرها. أليست الاخلاق المحمدية أكمل الاخلاق لتقويم النفوس مع خلوها من الضعف وما يوجب المسكنة وإذلال النفس وغير ذلك مما ورد في غيرها من التفريط أو الافراط. أليست قصص القرآن عبرة لمن اعتبر مع بعدها عن سفاسف الامور واللغو الذي لا فائدة فيه (قارنها ببعض أسفار العهد القديم مثلاً كسفري الملوك واخبار الايام) أليس من المبادىء الاسلامية ما لم تهتد الناس إليه الا في العصر الحاضر

(لها بقية)

محمد توفيق صدقي حكيم بسجن طره

باب التربية والتعليم

شذرات من يومية الدكتور أراسم (*)

(التربية بالتأثيرات الطبيعية)

يوم ١٤ أغسطس سنة ـ ١٨٦

صادفنا غداة اليوم على مقربة من ليما زنجيا آتيا اليها يلتمس رزقه من عرض حيوان يسمى البوما وهو المثل للاسد في أمريكا كانت قبيلة من المتوحشين اصطادته حيا وكان ربه وهو شبه مشعوذ يؤمل أن ينال بعض النقود من عرضه على النظار

كان هذا الرجل على شدة فاقته وعجزه عن القيام بنفقة نفسه مصحوباً بصبيه زنجية عليها طمر أزرق رأيت في مشيتها قزلا فسألتها بالاسبانيولية التي لا أحسنها عما أصابها فجعلها تعرج كما رأيت فكان جوابها أن ارتجى إحدى ساقيها فاذا فيها جرح دام ورأيت قدميها قد ورمتا ورما مفرطاً ولما أمعنت النظر في ساقها المجروحة عثرت على طرف شوكة

(*) مقرب من باب تربية اليافع من كتاب اميل القرن التاسع عشر

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

غليظة في سمك لحمها وهي التي تسبب عنها الجرح قطعاً ثم خبث بما اعتورهن من المشي والوصب ولدغ الحشرات فان هذين المسافرين كانا آيبين من مسافة بعيدة جدا

مازلت بهذه الشوكة حتى نجحت في سلها ثم ضممت أجزاء الجرح بعضها الى بعض ولما لم أجد خرقة أعصبه بها ناولتني «لولا» منديلها ولم تقتصر على ذلك بل دعتها رحمتها بهذه الفتاة الى خلع نعليها ووضع قدميها المرضوضتين فيهما فلاءمتاها أشد الملاءمة كأنما صنعتا لهذه المسكينة فأعربت «لولا» عن شكرها ثم غادرناهما ومضينا في سبيلنا

انبعثت «لولا» الى عملها هذا باعث من بواعث الخير القلبية لانها ما لبثت ان أدركت صعوبة الاختفاء في أرض صلبة خشنة كأرض البيرو فان طرقها لا مشابهة بينها وبين مخارف البساتين الكبرى في انكلترا

انشأ «إميل» أولا يسخر من حيرة صديقه في مسيرها حافية ولكنه لتأثره من صنيعها دبت فيه النخوة فاحتملها على ظهره فقبلت ذلك مبتسمة

ان الباقي من طريقنا لم يكن طويلا جداً ومع ذلك وقف «اميل» في أثناء الاستراحة مرتين أو ثلاثاً متباهياً في ذلك نصيحتي وفي آخر وقفة منها بصرنا من بعيد بالمشهود يقود البوما وعرفت «لولا» الصبية الزنجية وقد خلعت النعلين وحملتهما في يدها فما كان أشد غمها لهذا المرأى انظر كيف بخستها منحتها وكيف استعملتها

فسريت عنها ما خامر قلبها من الكدر بأن قلت لها ان العادة طبع ثان وان هذه الصبية لا بد أن تكون تعبت من الانتعال لاعتيادها الاختفاء على ان نية اسداء المعروف محمودة على كل حال ولو أخطأ صاحبها فيما يتخذه من الوسائل لانصال النفع

والذي رأيته خيرا من هذه العظة كلها هو ان ما وجده قلبها الطاهر من السرور باحتمال «اميل» اياها قدر لها فيما أرى على ان الانسان لا يخسر شيئاً مما يسديه من المعروف اهـ

يوم ٢٨ أغسطس سنة ١٨٩٦

زرنا بعض أجزاء من جبال الفوريير ولم يكن سبق «لاميل» أن شاهد مثل هذه الجبال التي يصح أن تسمى بالالب (١) الامريكية فراعه كل الروع ما لهذا الخلق الهائل

(١) جبال الالب هي سلسلة جبال عظيمة في اوربا

www.alukah.net

من مظاهر الفخامة والعظم مع اننا لم نبلغ منها إلا أدنى شعافها

لا بدلي أن ألاحظ هنا ان القدماء كانوا اقل مني التأثر بالجبال الشامخة من المحاسن الرائعة فانا لم نر لشعراء اللاتين من الكلام فيها إلا النذر اليسير ومعظم ما قالوه استهجان واستقباح وقد يحدو بي ذلك الى القول بأنه كان يلزم ان يدهمهم من الكوارث المحزنة ما تهتز له نفوسهم وأن تستضيء بصائرهم بنور العلم ويتمكن منها الاستعداد للبحث والتنقيب الذي هو من مزايا العصور الحديثة ولو تم لهم هذا لادركوا أن في سيارنا الذي نعيش على ظهره من المناظر الهائلة البديعة ما يدعو الى الاعجاب الحقيقي اهـ

يوم ٢ سبتمبر سنة ـ ١٨٦

كبت «لولا» دعواها وان شئت قلت خسرتها فكلا القولين صحيح باعتبار جهة النظر

اضطررنا للمصالحة في هذه القضية الكثيرة الارتباك لما يقتضيه الفصل فيها من الانتظار أشهراً بل سنين فعرض على الخصم أن يعطوا لبنت السفان مقداراً زهيداً من النقود وبعض ما كان لوالدها من الارضين . والارض هاهنا لا قيمة لها اليوم أصلا مالم يستغلها صاحبها بنفسه أو بواسطة وكيل له يقيم في هذه البلاد

فأما انا وهيلانة فاجتنا لنقيم فيه ليما ، بل قد انتهت مهمتنا ولم يبق الا السفر لا سيما اني تلقيت مكتوباً من الدكتور وارنجتون يدعوني الى لوندره لامور نافعة لي بينها فيه

وأما قوبيدون وجورجيا فانهما خيران بفن الزراعة خصوصاً زراعة الاقطار الحارة وليسا من ذوي العقول الضعيفة وأمانتهما تقوّم بكل ما في بلاد البيرو من الذهب ولا أرى ما يمنع من العهد اليهما بزراعة أطيان «لولا»

وانه ليشق عليّ مفارقة هذين الشهمين غير اني أرى أن اقليم انكلترا لم يخلق لمثلهما من الزنوج وأما اقليم جنوب امريكا فانه يؤذن بأن سيكون لهما فيه بتوالي الايام مناخ جميل ووطن سعيد اهـ

رجعت السفينة التي كانت حملتنا من لوندره الى قلاو منذ ثلاثة أسابيع ويعلم الله متى يكون مجيئها ولهذا رأينا بدلا من اجتياز رأس القرن أن نركب هذه المرة في سفينة تجارية على نهر الامازون(١) تسير بنا والشاطىء حتى نلتقط سواحل البرازيل حيث نجد

(١) المعروف ان الامازون أكبر انهار الدنيا ولعل المؤلف يريد بقوله نهر أحد فروعه القريبة من ليما

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

سفينة تكون مسافرة الى انكلترا فان هذه الطريق أقصر من الاولى بعشرين يوماً

تقوي «لولا» أن تعود معنا لان بلادها لقلة ما عرفته منها لم تبعث في نفسها شيئاً من الرغبة في توطنها ولانها تعلم فوق ذلك اننا نحبها

ما ندمت على هذا السفر بحال «فاميل» قد مضى وقته هنا في الالتفات الى العلم والاتقان في مسائله فهو يعود الى بلاده الآن ناقلا اليها بجاميع في علم التاريخ الطبيعي بل حاملا ما هو خير له منها — ضروب الانفعال الكثيرة بما رأى وصنوف الذكر لما وعى وقد تربى طبعه في مدرسة الاختبار والحياة التي لا يربي الرجال غيرها»

نعم اني لا أعني بهذا القول أن ألزم جميع من هم في سنه من المراهقين أن يبتعدوا عن أوطانهم بقدر ابتعاده ولكن رأيي الذي لا أحول عنه هو انهم لو خرجوا قليلا من أصدافهم ورأوا الكون في الكون قبل أن يروه في الكتب لفهموا من ذلك أكثر مما يتوهمون اهـ

الكتاب الرابع في تربية الشاب

المكتوب الاول من «أميل» الى والده

وصف معيشته — نادي الطلبة الالمانيين ومحاوراتهم — تهافتهم على خدمة الحكومة تفكر «اميل» في أمره — تألمه من عدم فهمه اللغة الالمانية — ذكره «لولا» — استيحاشة من غربته

برلين في ٨ يناير سنة — ١٨٦

انتظمت في سلك المدرسة الجامعة بعد امتحان كان لابد من تأديته وصرت ادعى منذ أسبوع بالسيد الشاب

من المفروض علي أن أكاشفك بشيء من تفاصيل معيشتي وأنا طالب: اما نهاري فأصرفه في تلقي دروس الحكمة والتاريخ والقوانين وعلم تركيب الحيوان والنبات ومنافع أعضائهما والمقارنة بين اللغات وغير ذلك وأما ليلي فاقضيه في مسكن استأجرته ستة أشهر نحو مائة وخمسين فرنكا واما طعامي فأتناوله في مطعم على مائدة جامعة في مقابل أربعة وعشرين صولدياً (١) وبعد العشاء تارة آوي الى حجرتي وطوراً

(١) الصولدي جزء من عشرين جزءاً من الفرنك فقيمة طعامه هي فرنك وربع

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أتنزه في المدينة ولكوني أجنبياً لما أطلع على اسرار طائفة الشبان كلها غلى ان أحدهم قد أخذني معه ذات ليلة الى مدخن (مكان لتدخين التبغ) يجتمع فيه بعض الطلبة الالمانيين فما فتح بابه حتى رأيتني تائها مغموراً بسحاب مركوم من الدخان حال بيني وبين رؤية جدران المكان وسقفه بل رؤية المكان برمته وكان يخيل الي انه يمتد الى غير نهاية وكنت اسمع اصواتاً واغاني وقهقهات ولا ابصر شيئاً من الصور الحية وأرى أضواء حمراء تبدو في بعض جهات هذا المكان يغشاها ذلك السحاب كانما تسبح منه في بحر لجي وكنت أمشي كخابط ليل وراء الدليل وعلى مقربة منه بين صفين من الموائد خيل الي انها تعوم في الضباب ورأيت عليها رؤية غير مستبينة آنية من القصدير كان لمعانها المعدني يجهد في صدع حجاب الظلام الدخاني المسدل على القاعة كلها ثم لمحت من خلال هذه الآنية وجوها آدمية لان بصري كان يتدرج في اعتياد هذا الجو الغريب والانس به ولم يكشف عني الحجاب كشفاً تاماً الا عند ما بلغت نهاية القاعة حيث اقيم مصطلى عظيم فرأيتني في جمع حافل من الشبان على رؤسهم القلنسوات وفي أيديهم أكواب الجعة وبين هذا التشويش واللغط عثرت على حلاق من الطلبة قامت بينهم مناظرات في مسائل مهمة ولم تلههم عن مداومة الشرب والتدخين

ان أذني لم تعتد سماع الاصوات الالمانية اعتياداً يكفي لمتابعة مجرى الحديث وفهمه ومع ذلك فقد فهمت من فحوى ما سمعته انهم يتناظرون في مقاصد ووسائل بعضها اسمى من بعض تتعلق باصلاح أحوال البشر وكانت البراهين والنكت والمعاني تنبعث من أفواههم كانها سهام نارية تتقذف بين أنفاس الدخان ولما أنصف الليل غادر القاعة جميع الطلبة ورأيت بعض من لاحظت فيهم الحمية والغيرة على مصالح الانسان منصرفين الى بيوتهم وقد حملوا بقنون جهاراً في وسط الشارع أغاني مبتذلة ولم يبد عليهم حينئذ ما يدل على انهم ذاكرون لما تعاهدوا عليه من اصطلاح شؤون الكون

أخص غاية للطلبة من اختلافهم الى المدارس الجامعة هنا بحسب ما سمعت هي ان يلوا عملا من أعمال الحكومة فكلهم يؤمل أن يكون خادماً لها على تفاوت بينهم في ذلك فاذا حصل أحدهم على لقب دكتور مثلا رأيته يتقدم الى الحاكم شهادته راجياً ان توليه أحد الاعمال الخالية في ادارتها ومعظم هذه الاعمال لا يولى الا بالامتحان ولا ينال الا من

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يظهر انهم اعلم من غيرهم وحينئذ يهول الذين يخيبون فيه على الاشتغال بالاعمال المستقلة ولا ادري اهذه الحالة وهي فرط الرغبة في تقلد المناصب العامة هي التي ينبغي ان ينسب اليها التغير الذي يحصل في عقول شبان الدكارة عند خروجهم من الجامعة ام له سبب آخر

فالواقع هو انه ليس بين اخلاق الطلبة واخلاق غيرهم من الالمانيين ادنى مشابهة: الطلبة يتظاهرون بالتفنج (١) والشذوذ والعربدة ويخيل الى من يرى غيرهم من الالمانيين انهم عمائون سكينة بل جمودا وبلادة والاولون مشهورون بالميل الى الثورة وبحب الحكومة الجمهورية وبعدم المبالاة بالخوض في اي بحث نظري وبالهجوم على جميع المسائل سياسية كانت او دينية او قومية بما يدهش من جرأة الجنان وبقية الأمة يظهر عليها التشدد في الاستمساك بالعوائد القديمة وبالحكومة الملكية . وترى الطلبة يتباهون باحتقارهم جميع الميزات التي لا منشأ لها الا اتفاق النسب على حين ان أواسط الناس يجلون ألقاب الشرف اجلالا لاحدله فترى الفريقين كامتين متمايزتين وليس للطلبة في الحقيقة ارتباط بباقي الامة الا رغبتهم العظمى في أن يلوالهم بعد مبارحة الجامعة اعمالا رسمية على ان هذا الارتباط كاف في عدم اكتراث الحكومة كثيرا بما يبدونه من حدة أفكارهم الحرة .

دعني في سيرة هؤلاء الشبان الى التفكر في سيرتي فاني قد بلغت الثامنة عشرة من عمري ولا مقام لي بين الناس بل لم يقف بي الاختيار حتى الآن على صناعة نافعة اشتغل بها واذا أردتني على الاقرار لك بما أجده قلت اني أحياناً آنس من نفسي فتوراً في الهمة وضعفاً في العزيمة وأسائلها عما أصلح له من الاعمال وأنا ضائق بذلك صدراً نعم انك قد رأيت مني تقدماً سريعاً مناسباً لحالي في العلوم ودرس كتب المتقدمين في أربع سنين أو خمس مضت وماذلك ولا شك الا من الطريقة التي أهلتني بها أنت ووالدي للعمل العقلي وهي مراقبة الأمور والاسفار وما تتقيته منكما من الدروس النافعة ولا شك ان لي طموحاً في العلم ولكني اجهد فكري في استقصاء ما يوزني من الخصائص فآونة اتوهم اني احس في نفسي بروح إلهي يقدرني على كل شيء

(١) التفنج افتخار الانسان بأكثر مما عنده

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وساعات يخيل إلي اني قد فنيت في عجزي وتجردت من حولي وقوتي وتارة تملكني الافكار وطوراً يستحوذ علي جدان الحاجة الى العمل والذي اراه يقيناً انني لم اجد الى الآن استقامة واستقراراً فيما لنفسي من القوى ان صح ان يسمى بها ما الشاب مثلي من الشهوات القوية التي تدعوه الى السعي لادراك مقام له في هذه الدنيا

لما بلغت ليما منذ شهرين كنت اعتقد اني على علم باللغة الالمانية لما قرأته منها في الكتب فما لبثت ان تبين لي خطأي في ذلك ومنشأ هذا الخطأ اني كنت احسن قراءة الصحف وعناوين الحوانيت واسماء الشوارع وما على الجدر من الاعلانات فان الجدر هنا كما تعلم تتكلم بالالمانية فاذا جرت حولي المحاورات اصغيت اليها وما كنت أسمع الا اصواتاً لا أفقه شيئاً من معانيها فكنت مطلق البصر اسير السمع لان من الامر المضني الحقيقي ان يعيش الانسان بين قوم لا يفهم لغتهم . كان الغلام الذي في الثالثة من عمره وهو في هذه السن لا يعرف من هذه اللغة الا التلثم ببعض ألفاظها يعرف منها أكثر مما اعرف حتى اني لما كنت احاول مخاطبته كان ينفض الي رأسه استهزاء كانه يقول اليك عني اني لا افقه لك قولا

كنت بين اولئك القوم كالاصم الابكم الذي فقد كل وسيلة التفاهم حتى لغة الاشارات فهل يمكن ان ينشأ عن الامواج الصوتية اذا اختلف انتقالها الى الاذن اختلافاً يسيرا باختلاف كيفية تحريك الشفتين مثل هذه الحوائل والحجب التي تبعد الناس بعضهم عن بعض

استأت جدا من هذه العزلة فجاهدت جهادا عظيما في التجرد من الانكماش الذي اجده من حياتي الطبيعي وانشأت اليوم انطق بالالمانية نطقاً مفهوماً واني لاعلم انه لا يزال يعوزني تحصيل الكثير منها ولكن من هو في مثل سني قد يعدان لا يحصل في قليل من الزمن لغة هو لا ينفك يسمع اصواتها من افواه جميع الناس في هذه البلاد وليس اصعب ما في هذه اللغة التكلم بها فما أرى بل هو فهم ما يسمع من التحاور بها بين اثنين من أهلها فقد كنت ذات مرة في الملعب وكان اثنان من الممثلين يتحاوران فما استطعت في سرعة تحاورهما ان افهم كلمة منه اللهم الا ما كان من تحية المساء وهي : «ليلتك سعيدة»

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

مثل اللغات الاجنبية ان لم اكن واهما كمثل دخان التبغ بالنادي الذي حدثتك عنه في كونه كان يحجب عني بدءي بدء رؤية ما كان فيه من الاشياء والاشخاص فهي حجاب سيزول على التعاقب وآمل ان سيظهر لي النور عما قليل

ارجوك ان تتوب عني في تقبيله لولاه واود لو ادري هل هي مواظبة على سقي الازهار وتمام العناية بالعليور وتنسيق مجاميع الاعشاب والدقائق وآمل منك إيصاءها بأن تذكرني كما اذكرها

إذا أنا كتبت اليك فقد كتبت الى والدتي فاتحها في قلبي لافترقان ولهذا لا ازيدها شيئاً الا اسفي على حرماني من حجرتي الصغيرة التي كنت أسمع منها حركة غدوكما ورواحكما في البيت وعلى أنسي بقربكما عند اصطلاء النار ليلا فاني هنا في وحشة أي وحشة . اختم اليك هذا المكتوب في الساعة الحادية عشرة من الليل على ضوء مصباح يملوه عاكس ضوئي يسقط منه نور ضارب الى الخضرة وفي احدى زوايا حجرتي ساعة دقاقة من الصنف الذي يصوت كطير الكوكو عند انقضاء كل ساعة تكرر نكنكتها التي لا تفتر واسمع حبيس احتراق الحطب في التنور وصرير الباب من صفق الريح اياه واري البدر من خارج الحجرة شاحب الوجه يرنو الي من خلال ستارتين كبيرتين موشاتين بالاشجار والازهار ما بين بيضاء وحمراء وقد أحسست بإغريق عبني مع ان هذه الاشياء في ذاتها لا تدعو الى الحزن ولكن لا تلمني فاني مازلت طفلا ولست آسى على بلادي وانما آسى على مفارقة مهدي فاني احبكما وأرجو من هذه الجهة على الاقل ان اعيش طول عمري طفلا

آثار علمية

تاريخ الاستاذ الامام

ان التربية بناء يوضع على أساس القدوة ويرفع على قواعد الاسوة فسير عظماء الرجال ، أنفع ما يذخر للاجيال ، وآثار العبرة بسير المعاصرين ، أقوى من العبرة بسير الغابرين ، لان عامة الناس عندنا تعتقد ان الاولين من عنصر ازكى ، واستعداد اقوى ،

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

فلا يضرب معهم المتأخر بسهم ، ولا يدانيهم في فضل او علم . — لذلك رأينا ان من انفع ما نخدم به الامة وضع تاريخ مطول للاستاذ الامام رحمه الله تعالى وقد نوهنا بذلك فيما نشرناه من سيرته . ونريد ان نقول هنا ان ورثة الفقيد واصدقاءه وعريديه الذين نعرفهم هنا عون لنا على هذه الخدمة وزجر من اخوانهم في الصداقة والوفاء من سائر الاقطار ان يتفضلوا علينا بما يرون من النصائح ، وما يعرفون عن الفقيد من الاعمال والمآثر مما يخفى مثله علينا ، ويظن ان لا يكون وصل الينا ، كبعض الكتب والرسائل ، وما رأوا من الاعمال او سمعوا من المسائل ، ومن ارسل الينا شيئاً من خط الفقيد فانا نعيده اليه على عهد الله ورسوله

ثم ان ما يرسل الينا منه ان كان اثارة من علم او ادب فانا ننشرها حتماً ونكافيء مرسلها بنسخة من التاريخ نهديها اليه وان كان كتاباً خاصاً بمن كان ارسل اليه فانا لا ننشره الا اذا كان فيه فائدة عامة من حكمة تؤثر او بلاغة تؤثر على انه قلما يخلو كلام له من كلنا المزيتين مهما كان الموضوع الذي كتب فيه . ولا شك ان الذين توجد عندهم هذه الآثار والاخبار يحرصون مثلنا على تدوينها واستفادة الناس منها في الاغلب فلا يبخلون علينا بما ينفع الامة ويحفظ اثر الامام فهذا الاستجداء سيصادف بذلا وسماحاً ان شاء الله تعالى

وانا نقدر ان التاريخ لا يقل عن الف صفحة وقد يزيد عليها وان نجزئه الى جزئين او ثلاثة اولى وربما نجعل له اشتراكاً

وليعلم الشعراء الذين نظموا المراثي ونشروها في بعض الجرائد اننا لا ننشر منها الا ما نختار مما ارسلوه الينا او الى الشيخ عبد الكريم سلمان او حمود بك عبده لاننا لم نتتبع الجرائد ونحفظ ما فيها من القصائد وليس المانع من اثبات المرثية في التاريخ هو سبق نشرها في بعض الجرائد وانما هو ما ذكرنا من عدم التتبع والحفظ فمن شاء ان يرسل الينا شيئاً مما نشر فليفعل

وكما نود لو يبين لنا كل من أرسل او يرسل الينا شيئاً من كاتب وشاعر لقبه الذي يخاطب به ووظيفته التي يذكرها لنذكره بما هو معروف به ان لم يكن متكرراً فذلك خير من نشر القصيدة او المقالة بالتوقيع الذي يذكر فيه الاسم غفلا لا يعرف مسماه الا المتصلون به وقد يشتبه بغيره لكثرة المشاركة في الاسماء والالقاب هنا (اي في البلاد المصرية)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

كتاب الهدية المصرية الى الجامعة الوطنية

كتب سليمان افندي مصوبع المحامي السوري مقالات في الاجتماع البشري والعمران ونشرها في جريدة ثمرات الفنون وغيرها من جرائد بيروت ثم اقترح عليه أن يجمع شملها في كتاب فجاء الكتاب يناهز مئتي صفحة في عشرة أبواب (١) في العمران أساسه وتحديده وسره ٢ في الحاجة تأثيرها والوقاية منها ٣ في المحاماة ٤ في الانتقاد ٥ في مسئولية الانسان ٦ في أدوار الحياة ونحو ذلك . وفي هذه المباحث آراء صحيحة وفيها مسائل غامضة ولعل أكثر الغموض من ضعف التأليف وإعواز البيان حتى كان الكلام كترجمة باصطلاحات جديدة وأسلوب لم يخلص داعماً الى الاسلوب العربي الصحيح من حيث تعدية الافعال وربط الكلام بعضه ببعض ووضع الكلم موضعه على أن فيه جملا رائعة وتعبيراً حسناً في بعض المواضع . وقد كان أعجب الكتاب الي وأحسنه عندي كلامه في الدين والشرائع الثلاث الموسوية والمسيحية والاسلامية فانه قد بناه على قاعدة النشوء والارتقاء وبذلك تبين ان دين الانبياء واحد وان الاخير مكمل لما قبله وعليه المعول في الخلاف ولولا التطويل لنقلت كلامه هذا على انه قد سبق لنا اقتباس ما كتبه الاستاذ الامام (رحمه الله تعالى) في ذلك من رسالة التوحيد وهو الكلام الذي ليس فوقه مطمع ولا وراءه غاية . وانما تبقى على سليمان أفندي لعنايته بما تقل العناية به في تلك البلاد ، ونرجو له زيادة التحرير والاجتهاد .

كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة

هذا الكتاب ذكر في دواوين المتقدمين لشهرة مؤلفه أبي نصر الفارابي فيلسوف المسلمين في القرن الرابع وقد كان من كنوز الكتب المخفية فظهر في هذه الايام وطبعه الشيخ فرج الكردي والشيخ مصطفى قاياتي الدمشقي بعطاء من المكتبة الوكية بمصر

مسائل الكتاب تدور على أقطاب الفلسفة اليونانية في الوجود الاول وما يجب له من الصفات وفي أقسام الموجودات الاخرى ومنها النفس ومن هنا ينتقل الى الكلام في الوحي والنبوة ثم الى حاجة الانسان الى الاجتماع والتعاون وانما يكملان بالمدينة لذلك بين معنى المدينة وقسمها الى أقسام المدينة الفاضلة وما يضادها من المدينة الجاهلية والمدينة

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الفاسقة والمدينة المتبدلة والمدينة الضالة . ثم ذكر في التفصيل أقساماً أخرى منها مدينة الخسة والشقوة قال « وهي التي قصد أهلها التمتع باللذة من المأكول والمشروب والمنكح وبالجملة اللذة من المحسوس والتخيل وإيثار الهزل واللعب بكل وجه ومن كل نحوه » وهذه المدينة قسم من أقسام المدينة الجاهلية . أما المدينة الفاسقة فهي أرقى من المدينة الجاهلية وقد عرفها بقوله « وهي التي آراؤها الآراء الفاضلة وهي التي تعلم السعادة والله عز وجل والثواني والعقل الفعال وكل شيء سبيله أن يعرفه أهل المدينة الفاضلة ويعتقدونه ولكن تكون أفعال أهلها أفعال اهل المدن الجاهلية » وجميع مباحث الكتاب يجري على طريق الفلسفة اليونانية

ولعل من اطلع أو يطلع على هذا الكتاب يتذكر انا كنا عبرنا عن هذه المدينة بالفاسقة فقام بعض الذين لم يرتقوا عن أهل المدينة الجاهلية يسلقوننا بألسنة حداد زاعمين أن ذلك يتضمن الطعن بعرض كل من يقيم في هذه المدينة « يقولون بألسنهم ما ليس في قلوبهم » على أنهم هم الطاعنون ولكن لا يخجلون

(سرور في أرض الهناء . ونبأ من عالم البقاء)

كتاب جديد الوضع والاسلوب والتخيل ألفه شكري أفندي الخوري اللبناني المقيم في البرازيل . فأما أرض الهناء فهي المدينة الفاضلة أو الكاملة في رأي فلاسفة هذا العصر وعلمائه وهي سعادة الحياة التي يتمنون ان يصل اليها البشر بالعلم والعمل والاتفاق والتواد بين جميع الناس وبلوغهم العمر الطبيعي (مئة سنة او اكثر) مع التمتع بالصحة والعافية لما يترتبون عليه من الرياضة البدنية والعقلية وتجنب الافراط والتفريط في الامور كلها لاسيما السرف في الطعام والشراب . مر بهذه الارض روح بشري فارق جسده وذهب الى الدار الآخرة فكانت في طريقه اليها وقد كتب الى صديق له في الدنيا ينبئه بوصفها على ما خيله مؤلف الكتاب

وأما عالم البقاء فهو معروف والمؤلف يصوّر فيه موقف الحساب والجزاء بحضرة ملك شرقي ظالم وأحد المتصرفين في جبل لبنان وراهب وشيخ مسلم وبخيل ولص وكاهن (قسيس) ومحافي وطبيب وسكير ومحام . يحاسب كل منهم ويعاقب على ما أفسد في الارض — تذكر ذنوبه ، وتفرح عيوبه ، ويعتذر ويتعلل ، فلا يعذر ولا يقبل .

www.alukah.net

وأما أسلوب الكتاب فهو فكه سلس يقرب من أسلوب العوام ويخلله كثير من عباراتهم وأمثالهم وتشبيهاتهم ومن قرأ طائفة منه يندفع الى إتمامه بسائق الرغبة وحادي اللذة وقلما ترى بين الكتب التي تؤلف وتنشر بيننا جمع بين اللذة والفائدة لاسيما في شؤون المعيشة والاجتماع والسياسة . نعم ان الفكاهة لاتليق في مقام الرهبة والجبروت وفي مواقف الحساب والجزاء ولكن غرض المؤلف من ذلك تمثيل سيئات هذه الاصناف من الناس التي تشتغل بالمصالح العامة فتفسدها وهم الملوك المستبدون وأعوانهم والاطباء والصحافيون والمحامون والقسوس وغيرهم من رجال الدين وقرنهم بالمصوص والبخلاء وليس الغرض الاول تمثيل أهوال الحساب والجزاء وارهاب الناس منه بل هذا وسيلة وذاك هو المقصد

ومما ينتقد عليه أن ماذكره من حال الملائكة التي تذهب بالارواح والتي تتولى الحساب والجزاء لايتفق مع عقائد الناس أو تخيلاتهم فيهم ولاهو في نفسه مؤثر يصادف من النفس موقعاً يليق به وأكثره لافكاهة فيه الا ماذكره من فتنة المحامي وتهييجه الشعب في ذلك العالم لاجل ان ينجو من العقاب فلا يستطيع احدان يملك ضحكه عند قراءة هذا

وقد انتقد عليه زميلنا نعوم افندي لبكي صاحب جريدة المناظر الحرة في مقدمة وضعها له اكتفاءه بذكر الراهبات من الاجواق التي رآها صاعدة الى السماء حيث تلقى أحسن الجزاء . ففي الناس من يستحق ذلك غيرهن . وأنتقد عليه أنا بقوة زعمه ان النصارى تقرب من المسلمين في جرائدهم ومدارسهم والمسلمون لايزدادون الا تباعداً والصواب ان في عقلاء الفريقين من يسعى للتساهل والتقرب بينهما وان جرائد المسلمين أبعد عن اثارة التعادي من جرائد النصارى فاننا لانرى فيها جريدة منتشرة تتعرض للنصارى فيما يختص بدينهم ورؤسائه كما نرى في جرائد النصارى بمصر من ذلك حتى ان بعض الجرائد اليومية كانت من عهد قريب تطعن وتحامي عن العقائد الاسلامية في الازهر وتتعرض لبعض كبار العلماء والأئمة وتحاول اشراب لافهام انهم يبثون في الازهر الالحاد ويفسدون الدين ومثل هذا كثير في الجرائد كالمناظر وأما المدارس النصرانية فأكثرها أو جميعها تلزم التلاميذ المسلمين بالعبادات النصرانية ولا نعرف مدرسة اسلامية في الدنيا تعامل التلاميذ النصارى بمثل هذه المعاملة .

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ثم انه ليس لمشايخ المسلمين من العناية بعامتهم وتلقينهم التعاليم والتقاليد الدينية مثل ما للقسوس وأكثر مذبذبي المشايخ مع غيرهم في الامور المادية وبالجملة كانوا يعنون بنشر مسائل الدين إذا لقل التنافر فان رأي الاسلام في النصرانية ليس كرأي النصرانية في الاسلام. الاسلام يثبت ان كتاب النصرانية حق ويوجب الايمان بمن جاء به وانما يثبت ان اهلها حرفوا وانحرفوا عن صراطها وأن ايذاءهم حرام والبر اليهم مشروع. والنصرانية تعد الاسلام كفراً في اصوله وفروعه وقد ألف القسوس في ذمه كتباً حشوها بأكاذيب لم تخطر على قلب مسلم في الارض ثم انه لم يعقد احد من المشايخ مجالس وسماراً لاجل الطعن في النصرانية ولم يبيتوا احدا منهم لدعوة النصارى الى الاسلام كما يفعل القسوس بالمسلمين، فأي الفريقين هو المفرق بين العالمين؟

هذا أرى ان أقرب طريق الى التأليف بين الفريقين نشر تعاليم الاسلام الصحيحة في المسلمين وانتزاع قسوس النصارى الذين لهم السلطان الاعلى على قلوب عامتهم من تنفيرها من المسلمين وكفهم عن الطعن في الاسلام ولا أبرئ بعض المشايخ من كلام صار يقولونه في المجالس عند ما يذكر تعصب النصارى ولكن مثل هذا الكلام لا يكاد يجري في درس ديني ولا كتاب تعليمي. وقد اقتنعت من الأحصي من المسلمين بأن التساهل والاتفاق على المصالح الدنيوية خير يأمر به الدين فلم اجد مقاومة تذكر، ولا رد يؤثر. وقد كتبت من قبل ان الصواب في التأليف ان يحمل الاحرار من كل طائفة على المتحمسين المفرقين منها وما احمل كل طائفة على الاخرى فهو الداء الذي لا يرجى معه شفاء.

تهذيب الاخلاق

يولد في كل أمة ألوف من الاولاد على استعداد عظيم للعلوم والفضائل فيضيع استعدادهم باغفال تربيتهم وتعليمهم وفيهم من لو علم وربي لنهض بالامة أو لكان ركناً من أركان ارتقائها. على أن إغفال تربية الاولاد وتعليمهم لا يكون من والديهم بالعمد والاختيار وانما هو الجهل والعجز. وقد تهمل التربية الصحيحة والتعليم النافع في الامة حتى لا يوجد أحد يقوم بهما ويقيمهما على قواعدهما وأمة مثل هذه يلوح للناظر انها قد تودع منها حتى لا رجاء فيها. ولكن هذا النظر غير صحيح فقد يقيض الله لبعض هذه الامم فيه الجهل والفساد من يربي فيه بعض الافراد، فيكون منهم النور المستطير

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

والخير الكثير، كما علمت من سيرة الاستاذ الامام رحمه الله تعالى. وقد ينهض الاستعداد ببعض الناس الى ان يربي واحدهم نفسه بعد الرشد واستقلال الفكر ثم يتربي لتربية غيره ولا بد لمثل هذا من الاسترشاد بالكتب النافعة. ومن هذا الصنف العالم الفيلسوف أحمد بن محمد بن مسكويه صاحب كتاب (تهذيب الأخلاق) الذي هو أحسن المختصرات في هذا العلم الجليل.

ولمت بهذا الكتاب منذ رأيته فطالعته ثم قرأته درساً. ثم علمت بعد الهجرة الى مصر ان الاستاذ الامام قرأه درساً كما ذكرت ذلك في ترجمته وكان الكتاب يومئذ مجهولا عند المشتغلين بالعلم فعرف وميتاً فاستحيي ويسرنا ان الناس أقبلوا عليه في هذه السنين فقد كان طبع طبعاً قبيحاً ونفدت نسخه فأعاد طبعه عبد العليم افندي صالح منذ سنين بالحرف الاسلامبولي الجميل على ورق جيد فأقبل الناس بسببه عليه حتى نفدت نسخه ورأى من الاعانة على التربية أن يطبعه ثانية ففعل وله من الفضل في اتخاذ الوسائل لنشره مايضاهي قيامه باجادة طبعه فعسى أن يكون في هذه الكرة اسرع انتشاراً لتستبشر بأن أمتنا تزداد حباً في العلم النافع وميلا الى التربية الصحيحة عاما بعد عام. وثمن النسخة من الكتاب خمسة عشر قرشاً وأجرة البريد قرش صحيح ويطلب من طابعه ومن إدارة المنار بمصر

شكر واعتذار

نشكر للذين عزونا ببرقياتهم وكتبهم عن مصابنا بمولانا الاستاذ الامام طالبين أن مكانا من مكان الولد البار من الوالد الرحيم، والمريد الصادق من المرشد الحكيم، على انه تغمده الله برحمته كان أبا الامة ومربيها، ومرشدها وهاديها. فمن معزلنا الا وكان يعزي نفسه ثم يذكر الامة والاسلام، ويعترف بأن المصاب عام، وكذلك رأينا التعازي التي خوطب بها اخونا حمود بك عبده والشيخ عبد الكريم سلمان بل رأينا مثل هذه التعازي في أيدي بعض المريدين وسننشر نموذجاً من ذلك في كتاب التاريخ ان شاء الله تعالى. وأما الاعتذار فهو عن عدم مجاوبة المعزين ويدخل فيه الاعتذار عن كاتبونا منذ أشهر في مسائل اخرى ونخص بالذكر البحرين وزنجبار والمغرب الاقصى. ولعلنا نكتب اليهم عن قريب

(تنبيه) لا نسمح لجرائد المصرية بنقل ترجمة الاستاذ الامام عن المنار ولا يضر اقتباس قليل من العبارة مع الاشارة وكثير من المعنى ولو بدونهما والعلم أمانة يؤديها أهله

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

(قال عليه الصلاة والسلام: ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق)

(مصر – ١٦ جمادى الثانية سنة ١٣٢٣ - ١٧ أوغسطس (آب) سنة ١٩٠٥)

الجديد و الطريف NEW & EXCLUSIVE

www.alukah.net

تتمة سيرة الاستاذ الامام

حياته في المنفى

لا تكمل تربية الرجال ، الا بمكافحة الاهوال ، فمادن النفوس لا تصفو من شوائب الضعف في الحق ، وتتمكن من مقعد الصدق ، الا بعد أن تمرض على نيران الفتن ، وتذاب في بوادق المحن ، « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » ولذلك يبتلي الله سبحانه وتعالى عباده المصلحين بفتن المفسدين ، ليعلم الصابرين والصادقين ، وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ، فالفتن والكوارث تمحص نفوس المؤمنين بالله السائرين على سننه فتزكيها وتعليها ، وتمحق الكافرين بنعمه والمنحرفين عن سننه فتدسيها وتفنيها ، وقد اتهم فقيدنا في الثورة بما هو بريء منه ، وتفنن المنافقون يومئذ بأخبار السوء عنه ، حتى أنذر بالاعدام ، ثم استبدل ذلك بالنفي ثلاثة أعوام ، فما حقد على واش ولا عتال ، بل كتب من السجن الى صاحب له يعجب من كيدهم ثم قال ،

« ولئن عشت لأفعلن المعروف ، ولأغيثن الملهوف ، ولأنقذن الهاوي في حفرة الغدر ، ولآخذن يد المتضرع من ضغط الظلم ، ولأتجاوزن عن السيئات ، ولاتناسين جميع المضرات ، ولابينن لقومي أنهم كانوا في ظلمات يعمهون * ولأظهرن الصديق في أجمل صوره ، ولأجلونه للناس في أبهج حلله ، ولأثبتن لهم ببرهان العمل انه فكرك الثاني في روحك الواحدة ، وجسمك الآخر في حياتك المتحدة ، وأنه صاحبك اذا طال ليل الكدر ، ومصباحك اذا غسق دجى الهموم ، تستضيء به في حل ما انعقد ، وتستعين بقوته في تيسير ما عسر ، وتذهب به إلى أوج المعالي والناس من

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

معجزات الصديق يتعجبون * — الى ان قال — لكني أقول لكم ان هذه الحوادث المريبة سوف تنسى ، وان هذا الشرف سوف يرد ، ولئن أبت طبيعة هذه الأرض بخستها ان يكون لها من عوده نصيب فليعودن في بلاد خير منها ، ولأجذبن الى المجد احبتي ومن الى المجد ينجذبون * كل ذلك ان عشت وساعدتني صحة الجسم ولا أطلب شيئا فوق هذين سوى معونة الله الذي عرفه بعض الناس وبعضهم له منكرون *» والكتاب طويل وسننشره برمته في تاريخ النقيد

وله قصيدة في الثورة نظمها في ظلمة السجن أيضا تزيد على مئة بيت وقد عرض في آخرها بما أبانه في آخر كتابه هذا من صدق العزيمة والثقة بنفسه والاعتماد عليها في مغالبة الزمان بعد الاتكال على الله تعالى وكونه لا يخاف شيئا يقطع عليه طريقه في عمله لوطنه وأمته الا الموت قال

وأحفظ الدهر أني لا أشاكله ... فيما تبطن من غش وتمويه
أحارب الدهر وحدي ليس ينفعني ... الا الثبات وحسبي من أصافيه
تعلم الدهر مني كيف يطعنني ... فخاب ظنا وخانته مزاكيه
وليس يعجزني عن كسر فيلقه ... الا المنايا تناجيني فتحميه
ان المنايا سهام الله سددها ... وليس يخطىء سهم الله مرميه

أرأيت من كانت له هذه النفس العالية ، والعزيمة الماضية ، أيحط من قدره ان يتهم بالسياسة فيلقى في غيابة السجن ، أم يلقى نور استعداده الاخراج والنفي ، ؟ كلا

(عمله في اوربا مصر والاسلام)

سافر رحمه الله تعالى الى سوريا فأقام فيها نحو سنة ثم سافر الى أوربا

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

على اتفاق بينه وبين استاذه وصديقه السيد جمال الدين لأجل الاشتغال بما كان يسمى « المسألة المصرية » فأقام فيها عشرة أشهر معظمها في اربس حيث أصدرا جريدة العروة الوثقى وكانا أسسا لها جمعية من مسلمي الهند ومصر والغرب وسوريا غرضها السعي في جمع كلمة المسلمين وايقاظهم من رقادهم وإعلامهم بالاخطار المحدقة بهم وإرشادهم الى طريق مقاومتها.

كان السيد جمال الدين مدير سياسة الجريدة والشيخ محمد عبده المحرر الاول لها. على انه لم يكن لها محرر سواه الا من كان يترجم بعض الأخبار من الجرائد الاوربية ويلقيها الى الشيخ يصححها وينفخ فيها من روح العبرة ماينفخ. كان السيد منبع الافكار والآراء السياسية التي تنشر في الجريدة لاسيما ماهو من سيئات الانكليز في الهند وغيرها وكان الشيخ يبرز هذه المسائل في صورة تروع الابصار وتحرك الأفكار ويتصرف فيها ماشاء

أما المقالات التي كان يكتبها في الاجتماع والوعظ والاخلاق والسياسة الاسلامية فقد كانت من الآيات البينات التي لا يكاد يوجد في كلام البشر مايساهمها في البلاغة والتأثير حتى كان علماء المسلمين وعقلاؤهم في كل قطر يتوقعون ان تحدث تلك الجريدة انقلابا عاما في المسلمين: حدثني الثقة عن السيد سلمان افندي الكيلاني نقيب بغداد انه كان يقول كلما قرأ عددا من جريدة العروة الوثقى: يوشك ان يحدث انقلاب في بعض بلاد الاسلام قبل ان يصدر العدد الذي بعد هذا. والسيد سلمان هذا كان من بقايا زعماء المسلمين يخضع له مئات الالوف من العرب والعجم. وسمعت شيخنا الشيخ حسينا الجسر الدائم الطرابلسي الشهير يقول: لو طال الزمان على جريدة العروة الوثقى لأحدثت نهضة جديدة للمسلمين وانقلابا عظيما.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

أقول وهي هي التي نقلتني من طور الى طور وحببت الي صاحبيها حتى جذبني الحب الى مصر ووصل حبل ودي بالاستاذ الامام وحملني على نشر حكمته، وإعلان دعوته، فقد كنت مرة أبحث في أوراق والدي العتيقة وأتصفح مافيها من الجرائد المطوية فعثرت على أعداد من العروة الوثقى فطفقت أقرأها المرة بعد المرة وهي تفعل في نفسي فعلها - تهدم وتبني، وتمد وتمني، وما كان وعدها الا حمقاء، ولا تمنيها الا رجاء وأملا، أحدث إصلاحا وعملا، فكانت هي أستاذي الثاني الذي أثر في نفسي، وأقيم عليه بناء عملي وأملي، وأما الاستاذ الأول فهو كتاب إحياء العلوم للامام الغزالي الذي كان أول كتاب ملك عقلي وقلبي. أنشأت بعد ان ظفرت بتلك الاعداد أبحث عن اخواتها في طرابلس فكنت أجد عند الرجل العدد وعند الآخر العددين فأنسخ ما أجد ثم علمت ان الشيخ حسينا الجسر احتواها كلها ومن عنده أتممت استنساخها. وأكبر أثرها عندي أنها هي التي وجهت نفسي للسعي في الإصلاح الاسلامي العام بعد أن كنت لا أبكر الا فيمن بين يدي وأرى كل الواجب علي أن أظهر في دروسي العقيدة الصحيحة والاخلاق الفاضلة وآمر بالمعروف وانهى عن المنكر وأنفر عن المعاصي وأنا لا أعلم سبب الفساد الذي فعل في العقائد والاخلاق مافعل، ودفع المسلمين الى مزالق الزلل، حتى هدتني العروة الوثقى الى المناشيء والعلل،

لم تكن خدمة الشيخين للاسلام في أوربا قاصرة على الوعظ والارشاد بل كان لهما سعي لدى فرنسا وانكلترا نفسها في المسألة المصرية ومسألة السودان وكان سعيا لو ظهر غريبا. وكان منه إقناع ناظر خارجية انكلترا بعد فصل السودان عن مصر وسفر الاستاذ الامام الى بلاد كثيرة لتوثيق

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

العروة والتمهيد للعمل أن يترك لسودان لأهله ويعدلوا عن محاولة فتحه، وكان لهما في ذلك آمال، ومقاصد ذات بال، وقد كان تقرر هذا وما حال دون إمضائه رسميا إلا موت محمد أحمد مهدي السودان، ولو شرحنا الوسائل التي اتخذها الشيخان لذلك لطار في براعتهما لثقلان، لا أنكر ان هذه الاعمال السياسية كان السيد جمال الدين هو المقترح لها ولكن كان فقيدنا عضده وساعده ولسانه وقلمه ولولاه لما استطاع المضي فيها على أن فقيدنا كان بما جرى له ولشيخه مع توفيق باشا في مصر قد ضعف أمله في الاصلاح السياسي ووجه همه الى الاصلاح القومي في التربية والتعليم. حدثني انه قال للسيد في أوربا إن هذه السياسة لا يأتي منها خير لان تأسيس حكومة اسلامية عادلة مصلحة لا يتوقف على ازلة الموانع الاجنبية فقط فخير لنا ان نذهب معا الى مجاهيل الارض لا سلطان للسياسة فيه ونحاول تربية افراد على ما نحب فاذا تيسر لنا تربية عشرة رجال يبذلون انفسهم لخدمة الامة لا يصدهم عن ذلك الجثوم في وطن، ولا الاخلاد الى الاهل والسكن، بل يكون همهم الاكبر الضرب في الارض لتربية مثلهم على ما ربوا عليه فلا يبعد ان يربي الواحد منهم عشرة فيكون لنا في زمن قريب مئة رجل يعملون للاسلام والرجال هم الذين يعملون كل شيء. فقال له السيد انما أنت مشبط قد شرعنا في عمل فلا بد من المضي فيه حتى يتم أو نعجز

كان لذلك السعي في انقاذ مصر والسودان أو السودان فقط طريق في ذلك الوقت لان الاحتلال الانكليزي كان في نظر أوربا كلها موقتا ولم تكن قدم انكلترا راسخة في مصر. وبعد ان رسخت القدم وتمكنت السلطة من البلاد قام بعض الأحداث يكتبون ويخطبون ويقولون ما يعد أمام ما تاله وكتبه

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الشيخ في وقته لنوا وكانوا يعدون أنفسهم بذلك خدمة مصر ومنقذيها ويرمون مثل الفقيد بالتقصير في خدمة الامة والوطن على انه هو المصري الوحيد الذي تدرج على استخدام السلطة الانكليزية في مصر لخدمة مصر والاسلام، بعد ان صارت الخدمة بمقاومتها من المحال، ولو كانت الخدمة النافعة هي مقاومة القوة بالكلام والكتابة لكانت العروة الوثقى أخرجت الانكليز من مصر قبل ان يتمكنوا منها

(مناظرة الفقيد لوزراء الانكليز في المسألة المصرية)

ذهب الفقيد الى لندن في تلك الاثناء وتكلم مع وزراء الانكليز في المسألة المصرية ومسألة السودان وفي الدلية المصرية وغير ذلك ونشرت الجرائد الاوربية بعض محادثاته معهم. نذكر هنا محادثة نشرت في العدد الرابع عشر من العروة الوثقى الذي صدر في ٢٢ شوال سنة ١٣٠١ - ١٤ اغسطس سنة ١٨٨٤ تحت عنوان (هؤلاء رجال الانكليز وهذه أفكارهم) والكلام بلسان السيد قال:

« تأخر صدور الجريدة أياما لضرورة ماسستا من ضعف في المزاج مع مصادفة رداءة الهواء في البلاد الفرنساوية هذه الايام والحمد لله على زوال المانع. الا اننا مع ذلك لم نقصر في أداء الواجب من العمل الذي قمنا به في المدافعة عن حقوق المسلمين فقد خلقنا والشكر لله لهذا العمل وطبعنا عليه ونرجو ديان السماوات والارض ان نموت في هذه السبيل وان نبعث في زمرة السالكين فيها.

رأينا إن يذهب الشيخ محمد عبده (المحرر الاول لهذه الجريدة) الى لوندرا إجابة لدعوة من يرجى منهم الخير لملتنا ومن يؤمل فيهم صدق

النية في رعاية مصالح المسلمين من رجال السياسة الانكليزية ، وليستكشف مناصب الفخاخ السياسية التي ماصرت عليها قدم شرقي الا سقطت منها فيما يعسر الخلاص منه ، وليسبر أغوار المطامع الانكليزية التي لا يدرك منتهاها تلك المطامع التي بعد ما التهمت ثلث المسكونة وطوّقت كرة الارض بالفتح والاستملاك لم تزل في مد لا جزر معه ولا يزال رجال حكومة بريطانيا في قرم شديد لابتلاع ممالك العالم وكلما أساغوا قطرا طلبوا اليه آخر ، وليستطلع خفايا المقاصد من أثناء الافكار وغضون الاقوال ، وليقف على الطرق المألوفة بين أولئك السياسيين في التلوين ويتبين كيف يتمكنون من ابراز محاسن الاعمال في صفات رديئة يستنكرها كل ناظر اليها واظهار السيئات في ألوان بهجة تسر الناظرين حتى يمكن بعد ذلك وضع ميزان قسط يتميز به الزيف من النضار الخالص كي لا يغتر الجاهل ولا يزل العالم . لاقى (محرر الجريدة) كثيرا من رجال السياسة الانكليزية وأنفذ الناس رأيا فيها وقد جرت بينه وبينهم محادثات طويلة في الاحوال المصرية ومن محادثاته الابتدائية ما نشر في بعض الجرائد الانكليزية كجريدة «البال مال كازيت» وجريدة «التروث» التي يحررها النائب الشهير مستر لابوشير وجريدة «التيمس» وسيذكر شيء مما جرى بينه وبين بعض الاكابر من رجال الحكومة الانكليزية مما يستفيد منه الشرقيون عموما والمصريون خصوصا وسنأتي جريدتنا على بعض ما استنبطه من فحوى أقوالهم وأدركه من مرامي أفكارهم . أما الآن فنأتي على جملة واحدة من محادثة طويلة كانت بينه وبين اللورد (هرتنكتون) وزير الحربية الانكليزية ليأخذ كل مصري منها حظه ويصيب كل شرقي سهمه ويقف جميعهم على مواقع الشرقيين من

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أنظار رجال الحكومة الانكليزية.

سأل اللورد هرتنكتون وزير الحربية الانكليزية: ألا يرضى المصريون أن يكونوا في أمن وراحة تحت سلطة الحكومة الانكليزية أو لا يرون حكومتنا خيرا لهم من حكومة الأتراك وفلان باشا وفلان باشا؟ فأجاب الشيخ (محرر جريدتنا) كلا إن المصريين قوم عرب وكلهم مسلمون إلا قليلا وفيهم من محبي أوطانهم مثل ما في الشعب الانكليزي فلا يخطر ببال أحد منهم الميل إلى الخضوع لسلطة من يخالفه في الدين والجنس ولا يصح لحضرة اللورد وهو على علم بطبائع الأمم ان يتصور هذا الميل في المصريين: فقال الوزير هل تنكر ان الجهالة عامة في أقطار مصر وان الكافة لا تفرق بين الحاكم الاجنبي والحاكم الوطني وان ما ذكرته من النفرة من سلطة الاجانب انما يكون في الأمم المهذبة؟ فأخذت الشيخ حدة تليق بمسلم لا يتهاون في أداء ما فرض الدين وأوجبه حقوق الملة وقال: أولا ان النفرة من ولاية الأجنبي ونبذ الطبع لسلطته مما أودع في فطرة البشر وليس بمحتاج للدرس والمطالعة وهو شعور إنساني ظهرت قوته في أشد الأمم توحشا كالزولوس الذين لم تنسوا ما كابدتموه منهم في الدفاع عن أوطانهم. وثانيا ان المسلمين مهما كانوا وعلى أيّ درجة وجدوا لا يصلون من الجهل الى الدرجة التي يتصورها الوزير فان الاميين منهم ومن لا يقرأون ولا يكتبون لا يفوتهم العلم بضروريات الدين ومن أجلاها وأظهرها عندهم ان لا يدينوا المخالفيهم فيه وان لهم في الخطب الجمعية ومواعظ الوعاظ في مساجدهم ما يقوم مقام العلوم الابتدائية وان جميع ما يتلقونه من النصائح الدينية يحذرهم من الخضوع لمن لا يوافقهم، ويحدث فيهم من الاحساسات

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الشريفة الانسانية مالا يحطون معه عن سائر الأمم خصوصا المصريين الذين ينطقون باللسان العربي ويفهمون دقائق ما أودع في ذلك اللسان وهو لسان دينهم . وثالثا إن أرض مصر من زمن محمد علي قد انتشرت فيها العلوم والآداب الجديدة على نحو ماهو موجود في بلاد أوروبا وأخذ كل مصري نصيبا منها على قدره ولا تخلو قرية من القرى الصغيرة من أن يكون فيها قارئون كاتبون والاخبار العمومية توصلها إليهم الجرائد العربية ومن لم يقرأ يستقي الاخبار من القارئين فبهذا أضافوا إلى الشعور الطبيعي والتقليد الديني محبة وطنية منشأها التهذيب العمومي قوي بها الميلان الاولان ولا أظنهم يخالفون في ذلك سائر الأمم : اه

«أين العلماء الاذكياء أين الجهلة الاغبياء أين الأباة الاعلياء أين السفلة الأدنياء ليرى كل واحد منهم منزلة الشرقيين عند رجال الحكومة الانكليزية كل ذي شكل إنساني وصورة بشرية يدرك ماوراء هذه الاسئلة وما تكشف عنه هذه الظنون العجيبة .

«هذا اللورد هرتنكتون وزير الحربية الانكليزية يظن ان الجهل بلغ من المسلمين عموما والمصريين خصوصا الى حد سلب عنهم كل إحساس إنساني وانهم في حضيض من الجهل لا يميزون فيه بين الغريب والقريب ولا بين العدو والحبيب

هذا دليل على ان الانكليز (لا من أنار الله بصيرته ووفقه لفهم الصواب) يعتقدون ان الأمم الشرقية والأمة المصرية في درجة الحيوانات السائمة والدواب الراعية لا تتألم الا من الجوع وفواعل الطبيعة المادية وليس لها من الاحساس إلا نوع من الانفعالات البدنية ولا تعرف من شؤونها

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إلا ما به تقوم حياتها الحيوانية فتألف راكبها والعامل عليها ومستخدمها في أي عمل من الاعمال الشاقة مادام يقدم لها طعاما وشرابا وإنها تهش وتبش لرؤية من يقدم لها غداءها وعشاءها وإن كان من أشد البلاء عليها بما يسومها من مشاق الأعمال فاذا عجزت عن العمل ذبحها وتغذى بلحومها: إلخ إلخ

ضاقت الحرية الانكليزية الواسعة ان تسع جريدة العروة الوثقى فمنعتها من الهند ومصر واشتدت الحكومة الانكليزية في إعنات من تصل اليهم وفرضت الحكومة المصرية غرامة وعقوبة على من ترى عنده فكان ذلك ماذا من الاستمرار في اصدارها وقد كان صدور آخر عدد منها (وهو الثامن عشر) في ٢٦ ذي الحجة سنة ١٣٠١ - ١٦ اكتوبر سنة ١٨٨٤ ثم سافر الفقيد الى تونس فأقام فيها أياما ثم سافر الى بلاد أخرى مستكرا فوق عقود العروة السرية التي كان من أغراضها ما أشرنا اليه ولو ذكرناه مرتبا مفصلا لكان مثارا للعجب من ركوب هذا الرجل مع استاذه الصعاب واقتحامهما الاخطار في خدمة هذه الأمة التي كانت ولا تزال كالمريض الاحمق يأبى العلاج لأنه علاج وان كان سهلا سائغا، ويمقت حكيمه وطبيبه وان كان برا رحيما، فليحفظ القارئون هذا الايجاز ليذكروه عندما يصلون في تاريخه الى سلوكه الاخير في مصر إعلان رأيه بتحتيم مسالمة المحتلين والاستفادة من حريتهم وحبهم للعمران ليعلموا انه هو عين الحكمة التي اختيرت بعد مساع جليلة، وتجارب طويلة،

عمله في البلاد السورية

وبعد الاخفاق في ذلك العمل السري، دون ذلك الهدي النبوي، ألقى عصا السير في بيروت أعظم ثغور سوريا وأقربها من العمران فأقبل عليه

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

أهل العقل والفضل ، وأرباب الذكاء والنبل ، يستفيضون منه سماء الحكمة ، ويتلقون هدي الحكماء والأئمة ، فكانت داره مدرسة عامة يؤمها الأذكياء وعشاق المعارف ، من جميع الملل والطوائف ، ومما كان يقرأ عليه فيها السيرة النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة والتحية ، وكان يقرأ التفسير في الجامع الكبير وفي جامع الباشورة لا يلتزم فيه كتابا وإنما يقرأ في المصحف ويلقي ما يفيض الله على قلبه وكان الناس يقبلون على درسه إقبالا لم يعرف في تلك البلاد لأحد من قبله حتى حسد النصارى عليه المسلمين فكانوا يرسلون اليه زرافات ووحدانا ويقفون بباب المسجد يمدون أعناقهم ويشخصون بأبصارهم ويصيخون بآذانهم لعلهم يلتقطون شيئا من تلك الدرر . ثم إنهم استأذنوه في دخول المسجد والجلوس في ناحية من حلقة الدرس فأذن لهم « فأجره حتى يسمع كلام الله »

وفي أول سنة ١٣٠٣ دعي إلى التدريس في المدرسة السلطانية لإحياء اللغة والدين فيها فابى ولم يكن في المدرسة من العلوم العربية الا مبادىء النحو والصرف وما تسميه الترك « علم حال » وهو ما يلقن للولدان من أحكام العبادات . فلما دخل المدرسة أدخلها في طور جديد كما كان شأنه في عامة أعماله يدخل في العمل مرءوسا فيكون في الواقع رئيسا . ذلك انه أصلح إدارتها بالاتفاق مع مديرها ووضع قانونا جديدا (بروجرام) للدروس وزاد في العلوم التوحيد ومعاملات الفقه والتاريخ الاسلامي والمنطق والمعاني والانشاء زادها لنفسه فكان هو الذي يدرسها حتى كانت دروسه تستغرق عامة النهار . وكانت دروسه كلها للتلاميذ على نحو ما ذكر في رسالة التوحيد « أمالي مختلفة تتفاوت بتفاوت طبقاتهم ... في أسلوب لا يصعب تناوله ، وان

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لم يعهد تداوله» إلا معاملات الفقه فكان يقرأ فيه مجلة الاحكام العدلية التي يحكم بها في المحاكم العثمانية . وكان يكلف تلاميذ الانشاء حفظ شيء من نهج البلاغة وديوان الحماسة والالفاظ الكتابية ويشرحه لهم. وكان له هم عظيم وعناية تامة بملاحظة آداب التلاميذ في المدرسة حتى إنه كان يزورها ليلا لأجل ذلك . وقد تخرج على يديه نابغة هي الآن تخدم البلاد بغيرتها واستقامتها، وعرفانها ونباهتها،

ثم إنه في سيرته كان مربيا للجماهير الذين يترددون عليه فقد كان يجلس اليه السني والشيعي والدرزي والنصراني واليهودي فيوسع صدره للجميع ويعامل كل واحد بالأدب الذي يليق به لا يؤذي جليسا ولا يغمط فضل مذاكر ولا مناظر على أنه لم يكن يقول غير ما يعتقد سواء كان القول في الدين أو في العلم أو في العادات والأمور الاجتماعية فكان رضي الله عنه نسخة كاملة من رجال لفنا في التسامح والتساهل وجمع الكلمة واحترام العلم وأهله كما وصف في كتاب (الاسلام والنصرانية) وقد أدهش أهل الفضل بعلمه وأدبه وبلاغته لا سيما في الخطابة الارتجالية التي لم يكونوا يعهدونها

وكان هنالك يشتغل بالتأليف فقد نقل إلى العربية رسالة الرد على الدهريين أو المقابلة بين الايمان والكفر في العمران التي كتبها السيد جمال الدين باللغة الفارسية . وشرح كتاب نهج البلاغة ومقامات بديع الزمان الهمذاني . وقد أقبل الناس على هذه الكتب وانتفعوا بها حتى انها طبعت مرارا . وكان يكتب المقالات الرائعة في الجرائد وسننشر ما عثرنا عليه منها في تاريخه . ولم يكتف بهذا الاصلاح المعنوي بل كان يسعى لدى الحكومة في إصلاح البلاد الاداري فوضع في ذلك لائحة قدمها للوالي

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وسننشرها في تاريخه أيضا وكتب لأئمة أخرى في الاصلاح الديني وقع عليها بعض الوجهاء وقدمت بواسطة الوالي الى السلطان . وكان قد جال في أرجاء الولاية واختبرها أتم الاختبار

عودته الى هذه الديار * وما استفاده من الاسفار

وفي سنة ١٣٠٦ عاد الى القطر المصري وقد كمل تهذيبه بالاسفار ، وركوب الاخطار ولذلك كان يسافر بعد ذلك في أكثر السنين مختارا كما كان يكرر المطالعة والمدارسة عن رغبة، بعد أن ألزم بالدرس أولا بالقوة، وقد كتب عن تأثير الاسفار في نفسه مانصه :

«أما الاسفار الى البلاد العثمانية ومعاشرة كثير من المسلمين غير مسلمي مصر فقد كان من نتائجها عندي أني عرفت حق المعرفة أن مرض المسلمين نشأ من أمرين الأول الجهل بدينهم، إبداع ما ليس منه، إلصاقه به واختلاط ماهو من الدين بما ليس منه حتى صار ماهم عليه دينا أجنبيا عن أصل الدين الاسلامي الطاهر الرفيع . والامر الثاني استبداد الحكام الظالمين من المسلمين في جميع أقطار الارض

«وقد سافرت بعد ذلك مرات الى أوربا وأفريقيا فكان أثر الاسفار في بلاد المسلمين زيادة البصيرة في ذلك الذي عرفته لأول الامر، وأثر الاسفار في أوربا قوة الامل في إصلاح أحوال المسلمين فما من مرة اذهب الى أوربا الا ويتجدد عندي الامل في تغيير حال المسلمين الى خير منها وذلك باصلاح ما أفسدوا من دينهم، وتشحيذ عزائمهم الى معرفة شؤونهم ، وامتلاك ناصيتها بأيديهم دون افراد ظلمتهم. وهذه لا آمل وان كانت تضعف في نفسي عند ماأعود الى دياري لكثرة ما ألاقي من العنت

www.alukah.net من شبكة الألوكة

وشدة ما أصادف من المصاعب وسوء ما أرى من انصراف المسلمين عن النظر في منافعهم وشدة عداوتهم لانفسهم وقوة رغبتهم في تمكين ظالميهم من رقابهم وحبهم في الاستعباد لهم لغير سبب معقول ، لكني متى عدت الى أوربا ومكثت فيها شهرا أو شهرين تعود الي تلك الآمال ، ويسهل علي تناول ما كنت أعده من المحال ، ولا تسألني عن السبب في ذلك فاني لا أستطيع تعليله ولكن هذا ما تحدثه الأسفار في نفسي » اه

أقول والمتبادر الى الذهن ان السبب في ذلك هو ما يسمى في العرف الآن بتأثير الوسط أي البيئة من المكان والمكين لأن كل انسان يحل في مكان ويشاهد حال قوم لابد ان يتأثر بشيء مما هم عليه بحسب استعداده وما وجهت اليه نفسه . وبلاد أوربا قد ارتقت ارتقاء عظيما في العلوم والصناعات والكسب والسياسة وغير ذلك فمن سافر اليها وكان من همه التجارة يزداد معرفة بطرقها ونشاطا في عملها ومن كان همه غير ذلك يتأثر بارتقاء القوم فيه فتنهض همته اليه وتاهيك بعلو كعب القوم في خدمة أمتهم ، وإعلاء شأن ملتهم ، وما يبذلون في هذه السبيل من الاموال ، وما يركبون لها من الاهوال ، فمن بر ما هم عليه من العزة والسيادة ، وهو يعلم ما كانوا فيه من الضعة والمهانة ، فهو جدير بأن يكبر أمله في قومه ، ولا ييأس من غده في يومه ، وكان تتمده الله برحمته يقول لي عندما يريد السفر الى أوربا : اني أذهب لأجدد نفسي : أي فقد أخلقها معاشرة الكسالى واليائسين . وقد توجهت همته في هذه السنين الأخيرة لزيارة الشعوب المسلمة فبدأ بزيارة تونس والجزائر وكان عازما على زيارة الهند وايران وقزان والقوقاس في هذه السنة وما بعدها فصرفه المرض عن عزمه في هذا العام ، ثم قطع آماله كلها الحمام ،

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

سيرته في القضاء الاهلي

لما عاد من سوريا الى مصر تسابق العظماء الى توفيق باشا في طلب العفو عنه فكان من الشافعين بعض الاسرة الخديوية ومختار باشا الغازي واللورد كروس ولم يكن أحد منهم يعرفه من قبل معرفة شخصية ولكنهم سمعوا بفضله فتفضل لكل منهم جميله وعفا عنه الامير وهو يعلم انه كان خصما للثورة العسكرية وإن كان روحا مدبرة لتلك الحركة الفكرية وأن الحكم عليه لم يكن عادلا ولذلك قال كما روى الثقة الفقيد: ما عفوت عن أحد عفوا كان أشبه بالاعتذار من هذا العفو: ولكنه كان يخاف أفكاره السياسية وميله الى تربية ملكة الاستقلال في الامة ولذلك أمر بأن يعين قاضيا في المحاكم الاهلية فلما نمي الخبر الى الفقيد امتعض وقال إنني لم أخلق لأكون قاضيا أقول حكمت على فلان بكذا وعلى فلان بكذا وانما خلقت لأكون معلما وقد جربت نفسي في التعليم فنجحت ثم طلب من ناظر الداخلية أن يشفع له عند الامير باستبدال التدريس في مدرسة دار العلوم بالقضاء وقال انني أعلم انه لا ارتقاء في التدريس وانني ارتقي في القضاء ولكنني لا احبه فلم يرض توفيق باشا وقال انني لا أحب ان يربي لي التلاميذ على أفكاره السياسية فرضي الفقيد بالقضاء وما زال يرقى فيه الى ان بلغ أعلى درجة منه

وقد كان قاضي العدل والانصاف لا قاضي القانون والرسوم وان شئت قلت القاضي المجتهد لا المقلد ذلك أنه لم يكن يحكم بظاهر عبارة القانون وتطبيق الواقع عليها بادي الرأي بل كان يتحرى اظهار الحق واصابة العدل في القضايا فان انطبقت على القانون والا عمد الى الصلح وكأين من قضية خالف فيها القانون عمدا حتى وشى به بعض حساده الواقفين على ذلك

وذكر شيئا من مخالفاته هذه فسأله المستشار القضائي السابق (مستر سكوت) عن حقيقة ذلك فقال هل العدل وضع لأجل القانون أم القانون وضع لاجل العدل ؟ قال المستشار بل القانون وضع لأجل العدل والعدل هو المقصود بالذات : فأنشأ حينئذ يشرح له القضايا ويبين أنه لم يحكم فيها الا بالعدل فاقتنع المستر سكوت وصرح منه سرورا عظيما لأنه كان منصفا عارفا بقيمة الرجال على ان هؤلاء الانكليز أبعد الشعوب الأوربية عن الرسوم في القضاء وأقربهم الى اعتبار الانصاف ووجدان القاضي ولو كانت هذه البلاد محتلة من دولة أوربية أخرى لتعذر ارتقاء الفقيد فيها

ومما كان يحكم فيه باجتهاده واعتقاده مسائل الربا فانه كان اذا تعذر عليه الصلح يحكم برأس المال دون الربا فيلجأ رب المال الى الاستئناف ليحكم له بالربا. ومما كان يخالف القانون فيه حبس الشهود الذي يظهر له تزويرهم فانه كان يخرجهم من الجلسة الى الحبس. ثم ان الحكومة أقرت عمله هذا وأدخلته في القانون بالتعديل الاخير . وقد أساء الادب بعض الاجانب مرة في الجلسة فأمر بحبسه فحبس ثم جاء قنصله الجنرال الى نظارة الحقانية شاكيا من ذلك . وكلم المستشار القضائي الفقيد في ذلك قائلا ان هؤلاء القناصل ليس لهم عمل يشغلهم في مصر فهم يفترصون شيئا يحاكمون به الحكومة ونحن نحب ان لا نجعل لهم سبيلا إلى القيل والقال : فذكر له الفقيد ما كان من ذلك الاجنبي في الجلسة من رفع الصوت وعدم التزام الأدب المعروف وقال إنني مادمت جالسا على هذا الكرسي لتقرير العدل فأنا لا أقصر في احترامه اذ لا يمكن احترام القضاء الا بذلك الخ ما قال وكان مستحسنا عند المستشار وقد كان يحكم على الاجانب وينفذ أحكامه. من ذلك أن كثيرا من

www.alukah.net

الفلاحين كانوا اذا حكم على أحدهم بنزع أرض من يده يلجأ الى رجل أجنبي أو رجل داخل فى حمايتهم فيعطيه الارض بعقد كاذب نكاية في خصمه فيمنع الاجنبي المحكومة من تنفيذ الحكم أو ترفع الدعوى إلى المحكمة المختلطة فتحكم فيها وكان من المحكوم لهم من يترك الارض للاجنبي لاعتقاده بعجزه عن انتزاعها منه فى المحاكم المختلطة ومنهم من كان يلقي بنفسه فى مهاوي الدعاوى ويخسر فيها ماشاء الجهل ان يخسر . فعلى أمثال هؤلاء الاجانب كان ينفذ أحكامه بالقوة متحملا تبعة التنفيذ لعلمه بأن ذلك لاجنبي المحتال لا يتجرأ على مقاضاة الحكومة فى دعوى هو فيها مبطل يعجز عن إثبات دعواه

ذلك شأنه فى القضاء وقد كان فيه نسيج وحده ولم يكن مشغولا فيه عما خلق لأجله من تربية الأمة فقد كان يعاقب المزورين وشهداء الزور حتى طهر كثيرا من البلاد من شرهم بعد ان استفحل وطغى سيله وكان يجتهد فى الاصلاح بين أهل البيوت وذوي القربى ويبالغ في حفظ حقوق النساء . وكان يطارد الفحش والفجور حتى كادت انزة تظهر من رجس لبغايا أيام كان قاضيا فيها كما طهرت من الزور . ذلك أنه كان يحكم بأشد العقوبة التي يسمح له القانون بها على كل بغي تبرجت في الشوارع وعلى أعين الناس حتى كاد يجعلهن من ذوات الحجاب وقد نقل الينا عن بعض الفساق هناك انه قال مرة لبغي يعرفها: كيف الحال؟ قالت: زي الزفت واذا بقي القاضي أبو عمة (ذو العمامة) هنا فانه يقطع رزقنا من هذه البلد . عايز يرجع الدنيا لزمان سيدنا النبي: أو قالت ما معناه ان النبي ظهر ثانية

وأما براعته فى تحقيق القضايا وفراسته فى تمييز البريء من ذي الريبة فحدث عنهما ولا حرج وقد كان مؤيدا بالوجدان الصحيح

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والإلهام الصادق فان كان كغيره من البشر عرضة للخطأ في رأيه فقد كاد لا يخطىء في وجدانه أو إلهامه. وسمعته يقول في بحث الكسب والاختيار انني كثيرا ما أنظر في قضية فاستخرج من التحقيق الطويل وجوها كثيرة للحكم بالادانة مثلا حتى اذا ماثمت المحاكمة وأردت النطق بالحكم تقوض كل ذلك البناء الذي كنت بنيته من وجوه الادانة وظهر لي بغتة ان المتهم بريء حتما فأحكم بالبراءة فسبحان مقلب القلوب.

عمله في الازهر

كان أول حديث دار بيني وبين الاستاذ الامام (قدس الله روحه) في مصر الحديث في إصلاح الأزهر. زرته في اليوم الثاني من وصولي إلى القاهرة بداره (في أواخر رجب سنة ١٣١٥) وبعد التحية والسلام وما يتصل بذلك من كلام كاشفته باعتقادي واعتقاد من أعرف من العقلاء فيه وانه بقية رجاء المسلمين في السعي للاصلاح وأنه بلغني انه يعمل لذلك في الأزهر فأفاض في كلام لخصته بعد مغادرة المجلس في عشر مسائل. قال (١) إن إصلاح الازهر أعظم خدمة للاسلام فان إصلاحه إصلاح لجميع المسلمين وفساده فساد لهم و(٢) ان أمامه عقبات وصعوبات من غفلة المشايخ ورسوخ العادات القديمة عندهم. و(٣) ان هذا الاصلاح لا يتم إلا في زمن طويل وانه اذا رأى حال الأزهر قد صلحت قبل موته فانه يموت قرير العين ويرى نفسه سعيدا بل يرى نفسه ملكا. و(٤) انه لا يرى لدخوله في الحكومة فائدة الا الاستعانة على إصلاح الأزهر فانه لولا مكانته عند الخديو والحكومة لما كان يسمع له في الازهر كلام ولا يقبل له رأي. و(٥) انه لم يحصل شيء من الإصلاح تذكر حتى الآن و(٦) انه أراد أن يبدأ بأعمال عظيمة في الاصلاح اغتناما

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

للفرصة فأشير عليه بوجوب التدريج ولكن لابد له من المسايرة وإن كان يخشى أن تضيع الفرصة بما يسمونه التدريج

هذه ست مسائل فى موضوع الازهر أطال القول فيها وانتقل منها الى المسائل الاخرى وأهمها تخطئه أذكياء المسلمين الذين يريدون خدمة الاسلام من طريق السياسة والى يأس من يعرفه من كبراء المسلمين من نهوضهم وتخطئتهم فى ذلك . وقال لي في حديث آخر ان نفسي توجهت لاصلاح الازهر منذ كنت مجاورا فيه بعد التلقي عن السيد جمال الدين وقد شرعت فى ذلك فحيل بيني وبينه ثم كنت أترقب الفرص فما سنحت الا واستشرفت اليها وأقبلت عليها حتى اذا ما صدفت الموانع لويت وصبرت مترقبا فرصة أخرى . وبعد ان عدت من النفي حاولت اقناع الشيخ محمد الانبابي بشيء فلم يصادف قبولا . قلت له مرة هل لك أيها الاستاذ ان تأمر بتدريس مقدمة ابن خلدون في الأزهر ووصفت له من فوائدها ماشاء الله ان أصف فقال ان العادة لم تجر بذلك . فانتقلت به في شجون الحديث الى ذكر الشيوخ وسألته منذ كم مات الاشموني والصبان ؟ قال منذ كذا قلت انهما حديثا عهد بوفاة وهذه كتبهما تقرأ بعد ان لم تجر العادة بذلك . فسكت ولم يدخل فى الحديث

وقال لي مرة أخرى ان بقاء الازهر متداعيا على حاله فى هذا العصر محال فهو إما ان يعمر وإما ان يتم خرابه وانني أبذل جهد المستطيع فى عمرانه فان دفعتني الصوادف الى اليأس من اصلاحه فانني لاأيأس من الاصلاح الاسلامي بل أترك الحكومة وأختار افراداً من المستعدين فأربيهم على طريقة التصوف التي ربيت عليها ليكونوا خلفا لي في خدمة الاسلام ثم

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

أؤلف كتابا في بيان حقيقة الازهر أمثل فيه أخلاق أهله وعقولهم ومبلغ علومهم وتأثيرهم في الوجود وأنشره باللغة العربية ولغة أفرنجية حتى يعرف المسلمون وغيرهم حقيقة هذا المكان التي يجهلها الناس حتى من أهله

لما جلس عباس باشا حلمي على كرسي الخديوية تجددت للبلاد المصرية آمال، وتوجهت الى أعمال، كان الغرض منها إزالة الاحتلال، ولو كان هذا الغرض مما ترجى اصابته بسهام المصريين، لكان الفقيد يكون في طليعة العاملين، لأنه كما نعلم أنفذهم رأيا، وأقواهم عزما، وأخلصهم قلبا، ولكنه كان يعتقد بعد ذلك السعي الذي أشرنا اليه أن المسألة لا يمكن أن تحل الا باتفاق الدول العظام وأن الرجاء في اتفاقهم بعيد كما تبين . فأراد أن يكون حظه من حب الأمير الجديد للعمل السعي في اصلاح الأزهر بنفسه واقناع الأمير بالسعي في اصلاح المحاكم الشرعية والاوقاف لأن هذه المصالح الثلاث إسلامية محضة لا مقاومة في اصلاحها للقوة المحتلة ولا منها فاتصل بالامير وحظي عنده وكاشفه برأيه كما كاشف الحكومة بأمله في الأزهر وجاء بما جاء من آيات الاقناع به حتى توصل الى إنشاء قانون تمهيدي للإصلاح يديره مجلس مؤلف من أكابر علماء المذاهب في الأزهر ينتخبون انتخابا وقد جعل هو وصديقه الشيخ عبد الكريم سلمان من أعضائه على أنهما من قبل الحكومة لا رأي لشيخ الازهر ولا للمجلس في انتخابهما ولا في استبدالهما وكان الشيخ محمد لانباني الذي هو شيخ الأزهر لذلك العهد مريضا وقد كثرت شكوى الشيوخ من إدارته فعين الشيخ حسونة وكيلا له بعد أن أخذ عليه العهد باقامة النظام والاتفاق مع الفقيد على الاصلاح

عين الشيخ حسونه وكيلا لمشيخة الأزهر مأذونا بإدارة شؤونه لسبع

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

خلون من جمادى الثانية سنة ١٣١٢ وصدر الأمر العالي بتشكيل مجلس إدارة الأزهر لست خلون من رجب من تلك السنة أي في الشهر الثاني ثم كان سعي في إقناع الشيخ الانبابي بالاستقالة يكاد يكون أمرا محتما فاستقال وصدر الأمر العالي بتولية الشيخ حسونة شيخا للازهر في ٢ المحرم سنة ١٣١٣

كان الاستاذ الامام، روّح الله روحه في دار السلام، يحب أن يجري الاصلاح في الأزهر بإقناع كبار مشايخه ورضى أهله فبدأ باستمالتهم بتكثير رواتبهم فسعى لدى المستشار المالي الاسبق وطلب تعيين مبلغ من خزينة المالية لمساعدة الأزهر الذي يخرّج للحكومة كذا رجالا من القضاة الشرعيين والمفتين والمأذونين فأجيب الطلب وعين في ميزانية سنة ١٨٩٥ م مبلغ ألفا جنيه للازهر على أن تصرف بنظام معلوم لا برأي شيخ الأزهر وميله على ما كان يعهد في الأزهر مع الوعد بالزيادة على هذا المبلغ في فرصة أخرى اذا جاء بفائدة فكان هذا حجة للتقيد على وجوب وضع قانون للمرتبات في الازهر ليكون لكل عالم حق معلوم يتناوله في وقته من غير تزلف إلى شيخ الجامع أو غيره. وتلا هذا القانون قانون كساوي التشريف ومرتباتها وكان الرأي فيها من قبل لشيخ الجامع يعطي من يشاء ويمنع من يشاء فصارت تعطى لمستحقها من غير سعي ولا تزلف فسر الشيوخ بذلك سرورا عظيما

بعد هذا وجه انتقيد عنايته في المجلس الى نظام التدريس والامتحان وبيان وسائل العلوم ومقاصدها وجعل التدريس فيها على طريق توصل الى الغاية منها وبعد اجتماع ومذاكرات طويلة وضع القانون لذلك واحتيج في تنفيذه الى المال فلجأ التقييد الى اريحية الأمير فصدر الأمر لديوان

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الاوقاف بصرف ٣٣٧٤ جنيها للأزهر بينت مصارفها ومنها ٤٦٤ جنيها لانشاء دار الكتب الازهرية . ثم وضع نظام آخر لتوزيع المرايات بالعدل

أما نظام التدريس واختيار كتب العلوم فهو الذي أحب الاستاذ الامام رحمه الله تعالى ان يجعله برأي كبار الشيوخ ليسهل تنفيذه بالرغبة ، ولا يثقل عليهم إلزامهم به من جانب القوة ، وليتعود أهل هذا المكان على البحث في الأمور المهمة ، والتعاون على ما ينفع الأمة ، فوضع مشروع نظام التدريس واختيار الكتب واقترح ان تؤلف لجنة من كبار الشيوخ للبحث فيها واقرار مايرونه نافعا فألفت اللجنة من أكثر من ثلاثين عالما وجعل الشيخ سليم البشري أحد أعضاء مجلس الادارة رئيسا لها . ثم انتخب منها لجنة للبحث في كل فرع من المشروع وابداء رأيها فيه للجنة الكبرى وكانت هذه اللجنة مؤلفة من بضعة نفرهم أكابر شيوخ الازهر وضم اليهم الاستاذ الامام من قبل مجلس الادارة وبعد ان اتمت هذه اللجنة عملها قدمته إلى اللجنة الكبرى فأقرته هذه بعد تحوير قليل لا يذكر . وكانت مشيخة الازهر قد أسندت يومئذ الى الشيخ سليم البشري الذي أوقف كل ما كان المجلس شرع فيه فأوقف أيضا مشروع اصلاح التدريس بل كان المجلس يقرر الشيء بالاتفاق مع رئيسه الشيخ سليم ثم انه لا ينفذه ولم يكن القصد من ذلك الا إحباط مسعى الاستاذ الامام وابقاء القديم على حاله ولقد كان قادرا على الالزام بالتنفيذ بطلبه رسميا من الحكومة ولكنه لم يكن يجب أن يكون للحكومة تصرف في الأزهر بل ان يبقى مستقلا يصلح أهله برضى واقتناع وعمل بقي كذلك بعده ؟ الله أعلم والايام تظهر مايعمل

وكان من الاصلاح الذي تم في الازهر بسعيه رحمه الله تعيين طبيب للازهر

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وصيدلية (أجزاخانه) خاصة به في نفس الجامع وانارة المسجد بالغاز البخاري وانشاء الميضأة على الاصول الصحية وتجديد مبان صحية في الاروقة وغير ذلك مما نفصله في التاريخ. ومن شاء ان يطلع على ذلك بالتفصيل التام، فليرجع الى كتاب (أعمال مجلس ادارة الازهر) الذي طبع في هذا العام (١)

وقد انتقل الازهر بهذا الاصلاح من خلل عام الى شيء من النظام، ومن حالك الديجور، الى بصيص من النور، ولم يتم عمل من الاعمال على ما كان يجب رحمه الله تعالى. ولكن الاصلاح الحقيقي الذي كان روحا محييا ونورا مبصرا فهو ما كان يلقيه من دروس التوحيد والتفسير والبلاغة والمنطق فهذه الدروس هي التي حولت نفوسا كثيرة عن السبيل المتفرقة الى سبيل الله وصراطه وهي محل الرجاء في هذا المكان،

(للسيرة بقية)

مرثية محمد حافظ اقتدى ابراهيم في الاستاذ الامام رضي الله عنه

سلام على الاسلام بعد محمد ... سلام على ايامه النضرات

على الدين والدنيا على العلم والحجى ... على البر والتقوى على الحسنات

لقد كنت اخشى عادي الموت قبله ... فأصبحت أخشى ان تطول حياتي

فوالهفي والقبر بيني وبينه ... على نظرة من تلكم النظرات

وقفت عليه حاسر الرأس خاشعا ... كأني حيال القبر في عرفات

لقد جهلوا قدر الامام فانزلوا ... نجاليده في موحش بفلاة (٢)

ولو أضرحوا بالمسجدين لانزلوا ... بخير بقاع الارض خير رفات

---

(١) هو تاريخ يبين ما كان عليه الازهر قبل الاصلاح وما صار اليه بعده صورة ومعنى وصفحاته ١٢٤ وثمن النسخة منه ٤ قروش واجرة البريد قرش واحد ويطلب من ادارة المنار ومن بعض المكاتب بمصر (٢) نجاليد الانسان جسمه

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تباركت هذا الدين دين محمد ... أيترك في الدنيا بغير حماة
تباركت هذا عالم الشرق قد قضى ... ولانت قناة الدين للعزمات

***

زرعت لنا زرعا فأخرج شطأه ... وبنت ولما نجتن الثمرات
فواحاً له ألاّ يصيب موفقاً ... يشارفه والارض غيرُ موات
مددنا إلى (الأعلام) بعدك راحنا ... فردّت الى اعطافنا صفرات
وجالت بنا تبغي سواك عيوننا ... فعدنَ وآثرن العمى شرقات
وآذوك في ذات الاله وأنكروا ... مكانك حتى سودوا الصفحات
رأيت الاذى في جانب الله لذة ... ورحت ولم تهجم له بشكاة
لقد كنت فيهم كوكبا في غياهب ... ومعرفة في أنفس نكرات
ابنت لنا التنزيل حكما وحكمة ... وفرقت بين النور والظلمات
ووفقت بين الدين والعلم والحجى ... فاطلعت نورا من ثلاث جهات
وقفت لها توتو ورينان وقفة ... امدك فيها الروح بالنفحات
وخضت مقام الله في كل موقف ... فخافك أهل الشك والنزغات
وكم لك في إغفاءة الفجر يقظة ... نفضت عليها لذة الهجعات
ووليت شطر البيت وجهك خاليا ... تناجي اله البيت في الخلوات
وكم ليلة عاندت في جوفها الكرى ... ونبهت فيها صادق العزمات
وارصدت للباغي على دين أحمد ... شباة يراع ساحر النفثات
اذا مس حد الطرس فاض جبينه ... باسطار نور باهر اللمعات
كأن قرار الكهرباء بشقه ... يريك سناه أيسرُ اللمسات

***

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

فيا سنة مرت بأعواد نعشه ... لانت علينا أشأم السنوات
حطمت لنا سيفا وعطلت منبرا ... واذويت روضا ناضر الزهرات
واطفأت نبراسا واشملت اتقسا ... على جمرات الحزن منطويات
رأى في لياليك المنجم ما رأى ... فأنذرنا بالويل والعثرات
ونبأه علم النجوم بحادث ... تبيت له الابراج مضطربات
رمى السرطان الليث والليث خادر ... وربّ ضعيف نافذ الرميات
فاودى به ختلا فمال الى الثرى ... ومالت له الاجرام منحرفات
وشاعت تعازي الشهب باللمح بينها ... عن النير الهاوي الى القلوات
مشى نعشه يختال عجبا بربه ... ويخطر بين اللمس والقبلات
تكاد الدموع الجاريات تقله ... وتدفعه الانفاس مستعرات
بكى الشرق فارتجت له الارض رجة ... وضاقت عيون الكون بالعبرات
ففي الهند محزون وفي الصين جازع ... وفي مصر باك دائم الحسرات
وفي الشام مفجوع وفي الفرس نادب ... وفي تونس ماشئت من زفرات
بكى عالمُ الاسلام عالم عصره ... سراج الدياجي هادم الشبهات
ملاذ عيايل ثمال أرامل ... غياث ذوي عدم إمام هداة
فلا تنصبوا للناس تمثال عبده ... وان كان ذكرى حكمة وثبات
فاني لاخشى ان يضلوا فيومثوا ... الى نور هذا الوجه بالسجدات
فياويح للشورى اذا جد جدها ... وطاشت بها الآراء مشتجرات
وياويح للفتيا اذا قيل من لها ... وياويح للخيرات والصدقات
بكينا على فرد وان بكاءنا ... على أنفس لله منقطعات
تعهدها فضل الامام وحاطها ... باحسانه والدهر غير موات

هذا من شبكة الألوكة www.alukah.net

فيا منزلا في عين شمس أظلني ... وأرغم حسادي وغم عداتي
دعائمه التقوى وآساسه الهدى ... وفيه الأيادي موضع اللبنات
عليك سلام الله مالك موحشا ... عبوس المغاني مقفر العرصات
لقد كنت مقصود الجوانب آهلا ... تطوف بك الآمال مبتهلات
مثابة ارزاق ومهبط حكمة ... ومطلع أنوار وكنز عظات

﴿ المنار الاسلامي واللواء الوطني ﴾

بين المنار الاسلامي وجريدة اللواء الوطنية تضاد فيما يسمونه المبدأ فالمنار يدعو الى الاصلاح الاسلامي ويثبت ان المسلمين لا يرتقون الا بترك البدع ورجوعهم في الدين الى ما كان عليه السلف وبأخذهم بوسائل القوة والمدنية العصرية في أمر الدنيا ويدخل في الاول ان كل مسلم أخ لكل مسلم وفي الثاني ان أهل كل قطر من الاقطار ينبغي لهم التعاون على عمرانه لا يفرق بينهم في ذلك دين ولا مذهب. وجريدة اللواء لا رأي لها في الدين والاصلاح بسقطها ولكن لها وطنية عمياء من معناها انه يجب على كل مصري ان يتعصب على كل من يقيم في مصر من غير أهلها الاقدمين وان كان مسلما وعلى كل مصري مسلم ان يتعصب على كل مصري ليس بمسلم وهذا مما ينقضه المنار ولذلك ترى جريدة اللواء تقدح في المنار وقلما نطالع على شيء من طعنها. وقد صارت في هذه السنة تسند الطعن الى بعض الاقطار إما اختلاقا وإما لأن مثل أحمد المنوفي كتب اليها بذلك (هذا الرجل من باعة الكتب كالذين يطوفون بالازبكية وسافر الى كلكته فصار امام مسجد بها) فتسمي ذلك صوت اللواء في الهند!!. وقد يجيئها ما يفند مطاعنها فلا تنشره كما ترى في الرسالة الآتية التي كتب الينا مرسلها من سنغافورة صورتها وكلفنا نشرها ان لم تنشر في اللواء وهي

عن سنغافوره في ٢٧ جماد أول سنة ١٣٢٣ الى مصر القاهره.

حضرة الفاضل سعادتلو أفندم صاحب اللواء دام علاه

بعد السلام قد اطلعت على ما كتبه في جريدتكم الغراء في العدد ال ١٧٥١ حضرة الفاضل الهندي المولوي عبد المجيد المرادآبادي أحد مدرسي العلم الشريف بكلكتا فتأسفت كثيرا لاني لم أكن طالعت شيئاً من أفكار علماء الهند قبل في هذا الموضوع

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وظننت حينئذ انهم في جمود وخمود لا كما كنت أظن وأسمع حتى رأيت ما كتبتموه من كلام حضرة المفضال النواب محسن الملك كثر الله أمثاله وحفظه فسري عني ذلك الاسف وحل محله الرجاء وقد أعجبني كثيرا كثيرا مما كتبتم على كتابه الاخير فجزى الله أحسن الجزاء كل داع الى الهدى نابذ للتعصب الاعمى

اللهم الا انه وقع عندي موقع الاستغراب جهل المولوي اتشار للمنار بالهند وخصوصاً في كلكته اذ حضر لدى وقت قراءتي تلك الرسالة أحد أهل كلكته ممن يقرأ المنار منذ سنين من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ويعرفون الرجال بالحق لا بالعكس وقد أفادني ان للمنار هناك سمعة حسنة ولكثير من الجرائد والمجلات العربية والمصرية

أما حصر المولوي ما وجد في المنار في نبذ المذاهب الاربعة فشيء اختص هو به فليعد النظر ان لم يعمه تعصبه ليعلم ان المنار يدعو الى نبذ نحو قولهم (اذا زنى الرجل بأمه أو بنته بعد ان يعقد عليها صارت له فراشاً ولا حد عليهما) وامثال ذلك وصاحب المنار ومن على شاكلته هم المتبعون للائمة عليهم الرضوان لان الائمة لم يكونوا مقلدين جامدين بل أفنوا اعمارهم في اقتباس العلم من الكتاب والسنة

وتظاهره بالخوارج مما دلنا على كمال علمه وعلمه بالدين والتاريخ فلا نطيل الكلام مع من كان اعمى او يتعامى لكننا نصح لذوي الشأن في المدارس بأن لا يثقوا بمن هذا علمه وعقله وغالب الظن ان ذلك الكاتب لا عالم ولا متعلم بل متعصب متخبط اراد التضليل فنسب نفسه الى العلم والتدريس والا فليكتب لنا العبارة المنتقدة بنصها ثم ليرد عليها بالدليل لا بقال وقيل. وانى له ولامثاله ذلك فيقال له (ايس بمشك فادرجي) ولسنا ممن يعتقد العصمة للمنار ولكنا نلوم ارا المنصفين لا ينكرون الامر الحق. واما تربصه الدوائر لمن ينفي تحريف المبطلين وانتحال الغالين عن هذا الدين فنقول له واشيعته تربصوا فانا معكم متربصون والعاقبة للمتقين ولا عدوان الا على الظالمين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين افتدم

شيخ بن احمد الهادي

﴿ مشروع بناء مسجد في باريس ﴾

خطر هذا المشروع للخواجه (ليور لامير) المقاول في مصر من عدة شهور وكاشف به بعض وجهاء مصر فلم يفهم انه لا يرجى نجاحه الا اذا كان تحت رئاسة فقيد الاسلام والشرق الاستاذ الامام رحمه الله تعالى فأرسل أحد أولاده (فيكتور لامير) كتاب منه الى الامام عند ما ذهب الى رمل الاسكندرية مريضاً فقضاه من مقابلته لان صحته لا تسمح

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

له بالكلام ولا الفكر في الاعمال فعاد الى مصر وأرسل الي بعد ذلك كتاباً في ٢١ يوليو يرجوني فيه رجاء مؤكداً أن أعرض المشروع على الامام في الوقت المناسب وأرسل معه قائمة كتب في أعلاها (أسماء المتحدين على مشروع بناء جامع في مدينة باريس تحت رياسة فلان الخ) ورغب الي أن أكلف الامام بامضاء القائمة ثم أعرضها على بعض وجهاء الاسكندرية ثم أرسلها اليه لكي يتيسر له امضاؤها من وجهاء مصر. وانني لم أر فرصة مناسبة لهذا كرة فقيدنا في هذا المشروع لاعرف رأيه فيه وبعد ان توفاه الله تعالى بلغني ان الرجل رغب الى شيخ الازهر ان يجعل المشروع تحت رياسته فقبل فعسى ان ينجح المشروع ويبنى المسجد في مكان يسهل على المسلمين في باريس القصد اليه والصلاة فيه ولا يكون كجامع لوندن (لوندره) الذي حدثنا عنه الأستاذ الامام رضي الله عنه بما يأتي قال

خطر لرجل يهودي مستخدماً في الهند ان يجمع من المسلمين مالا يبني به مسجداً في لوندره فجمع خمسين الف جنيه ثم جاء لوندره فبنى مسجداً في خارجها على مسافة ساعة في السكة الحديدية وهو مكان لا يصل اليه احد من المسلمين في لوندره فهو مغلق أبدا لا يصلي فيه احد. وقد اشترى الرجل ارضا لنفسه عند الجامع وبنى فيها بيتا انزهته اذا علم بأن بعض امراء المسلمين او اغنيائهم زار لوندره يبحث عنه ويدعوه الى داره الى رؤية المسجد ولما زار امير الافغان لهذا العهد لوندره — وكان يومئذ ولي العهد الامارة — اجاب دعوة هذا اليهودي وبعد الطعام اعطاه خمس مئة جنيه. ولا يخالن احد ان الامير كان مبسوط الكف لكل احد يتصل به او يخدمه فقد كان خالد افندي استاذ اللغة التركية في مدرسة كمبردج (مهندساً) للامير في لوندن لزم خدمته واعدله كل وسائل راحة وهو ينعم عليه الا بجنيه واحد لم يقبله

والعبرة في هذا المقام ان المسلمين قد فتنوا بهؤلاء الاجانب فتوناً فالخواجه مجهول منهم يحظى عند كبيرهم وصغيرهم ويسهل عليه أن يبلغ منهم مالا يبلغه اوسعهم علما وابعدهم فهما واشدهم غيرة واطهرهم سريرة فلو ان مسلما حاول جمع المال من هند او مصر لبناء مسجد في لندن او باريس لعجز ولكن الاجنبي لا يعجز عن استخدام نفوذ كل كبير فيهم حتى رجال الدين وما احوجنا الى رجال يسبرون غور الاجانب يستفيدون من خيارهم ما ينفع الامة ويتوقون شر شرارهم ويدفعونه عنها كما كان يفعل الاستاذ الامام رحمه الله تعالى وجزاه عن هذه الامة افضل الجزاء